تأمّلات

في

الحياة ا لمعاصرة

الجزء الخامس

مطبوعات ساعة الإصلاح

P.O Box 486, Dracut MA 01826 USA Email: info@arabicbible.com
© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

المحتويات

التطوّر أو الخليقة؟
التلوث وحفظ البيئة -1-
التلوّث وحفظ البيئة -2-
من مظاهر الحياة المعاصرة -1-
من مظاهر الحياة المعاصرة -2-
أخلاقيات الاقتصاد
أخلاقيات التكنولوجيا.
أخلاقيّات الطبّ.
أخلاقيّات السينما.
حياد العلم.
الشر في حياة الإنسان المعاصر.
الطريقة العلمية
مشكلة الحداثة والعصرنة
اتبعني: الإنجيل حسب يوحنا 21

All Rights Reserved
جميع الحقوق محفوظة- الرجاء التقيد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز إعادة نشر أو طباعة هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو إليكترونية أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن خاص ومكتوب من الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل.

يمكنك أن تحتفظ بالكتب أو المقالات للاستخدام الشخصي فقط وليس بهدف بيعها أو المتاجرة بها بأي طريقة كانت ومهما كانت الأسباب.

1

التطوّر أو الخليقة؟

لا بدّ أنّكم تذكرون تطرّقي لموضوع التطوّر في أكثر من مناسبة، ونظراً لأهميّته في الحياة الفكريّة المعاصرة أعود للكلام عنه خاصة بعد أن وصلتني رسالة من أحد مستمعينا الكرام وهو يدرس في إحدى الجامعات الأجنبيّة. وأرجو ألا يساء فهم هذا البحث وألا يظن القرّاء بأنني أقف موقف المنتقد للعلوم الطبيعية والتقنية. لكنني أجد نفسي مرغماً للعودة إلى البحث في موضوع التطوّر نظراً لتأثير هذه النظرية الفلسفية على موقف العديدين من الشباب والشابات من الله ومن وحيه المقدّس.

دعوني أقتبس أولاً من رسالة المستمع الكريم ثم أعود للكلام مباشرة عن موضوع التطوّر. كتب لي قائلاً ومستفسراً: "فسؤالي هنا ليس عن الروح. فنحن نعرف أنّ الروح شيء لا يعرفه إلاّ الله. ولكن سؤالي هنا: لماذا لا نجد في الكتب السماوية ذكراً لتكوين الإنسان، ولا نجد فيها إلاّ الكلام عن الأرض في الحقبة الرابعة والأخيرة أمّا الحقب الثلاث التي سبقت ذلك فلا نجد عنها الكلام؟ فأنتم تعرفون نظرية داروين والتي يعترف بها العلم لحدّ الآن، تشرح تاريخ تكوّن الخليقة من الأول إلى وصولها في شكل إنسان. فهذا التاريخ ليس موجوداً في الكتب

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

السماوية، فلا نجد الكلام إلاّ على الإنسان في شكله الحاضر، فهل هذا دليلٌ قاطعٌ على فشل النظرية الداروينية؟ أم ماذا؟".

عندما نبحث في نظرية التطور والتي تُنسَب إلى العالم الإنجليزي تشارلز داروين والذي جاء بها في القرن التاسع عشر، علينا أن نأخذ ما يلي بعين الاعتبار:

أولاً: نظرية داروين هي نظرية لا أكثر ولا أقلّ! أعني أنّها مع كونها مكتسية في عقول العديدين من الناس بثياب العلم إلاّ أنّها غير مثبّتة بصورة قاطعة.

ثانياً: كان الجوّ الفلسفيّ الذي أحاط بظهور هذه النظرية جوّاً معادياً لعقيدة خليقة الإنسان من قبل الله. فالنظرة الحياتية الشاملة التي انتشرت في أوروبا منذ عصر النهضة كانت نظرة لا دينية منكرة لسلطة الوحي الإلهي. وبعبارة أخرى، إن الافتراض المسبق (presupposition) في هذه النظرية هو إلغاء عمل الله في الخليقة بما في ذلك خليقة الإنسان.

ثالثاً: لدينا الآلاف من السنين من التاريخ المسجّل والحضارات التي نشأت في كلّ من وادي النيل وبلاد ما بين النهرين هي قديمة جدّاً. لكننا لا نقرأ في سجلات هذه الحضارات القديمة عن أيّ اكتشاف أو ملاحظة سجّلها الأقدمون بخصوص حيوان متقدّم تطوّر إلى إنسانٍ كاملٍ!

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

رابعاً: حتى وإن سلّمنا جدلاً بصحة نظرية التطور فإننا لا زلنا نجابه موضوع الحلقات العديدة المفقودة في سلّم التطوّر! ونظراً لهذه الحقيقة الصارخة فإنّ دعاة هذه النظرية يرغمون إلى دفع التاريخ إلى الوراء بالملايين من السنين ليوجدوا لنظريتهم وقتاً كافياً لتعمل عملها وتأتي بالتطور المفروض.

وتعليقاً على ما ورد في رسالة المستمع العزيز وخاصة على قوله بأن الكتب السماوية لا تذكر تكوين الإنسان، جوابي هو أنها تذكر الموضوع بكل وضوح. لنأخذ مثلاً توراة موسى وهو أقدم كتب الوحي الإلهي نجد في القسم أو السفر الأول منه والمعروف بسفر التكوين نجد ثلاثة فصول تبحث في موضوع الخليقة. يبدأ سفر التكوين بهذه الكلمات: "في البدء خلق الله السموات والأرض". ثم يأتي الوحي الإلهي على ذكر خليقة الحيوانات والإنسان الذي هو تاج المخلوقات جميعاً. وعندما نصل إلى موضوع الإنسان نقرا ما يلي في فاتحة سفر التكوين: "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم".

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

أما عن كيفية مجيء الإنسان إلى الوجود يعلّمنا الفصل الثاني من سفر التكوين أن الله تعالى هو الذي صنع الإنسان بصورة مباشرة وبدون اللجوء إلى أي نوع من التطور وهذه هي كلمات الوحي الإلهي: "وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حيّة".

ونحن عندما نقتبس من سفر التكوين لا نعني بأنه أوحي به بلغة القرن العشرين العلمية بل أعطانا الله محتوياته كبقية أسفار الوحي لنقف على تفهم معنى الحياة البشرية وغاية وجودنا على الأرض. فالوحي الإلهي يعطى دوماً بلغة شعبية مفهومة لا بلغة عويصة لا يفهمها إلا كبار المثقفين!

وعندما نبحث في موضوعنا هذا بحثاً دقيقاً لا بد لنا _ فيما إذا كنا متعلقين بإيماننا بالله الخالق والمعتني بجميع مخلوقاته _ من نبذ نظرية داروين أي نظرية التطور لأنها بعكس ما يقول أصحابها، ليست علمية بل تبقى نظرة حياتية فلسفية غير مبرهنة. وفوق ذلك تقول: نحن وقد وصلنا إلى السنين الأخيرة من القرن العشرين ورأينا ما حدث من أهوال وفواجع ذات أبعاد هائلة، قد اتعظنا بها. وصارت لدينا قناعة هامة ألا وهي وجود خط مستقيم يصل بين هذه النظرية وهضم حقوق العديدين من الناس الذين شرّدوا من ديارهم وجعلوا وكأنهم لا شيء بين أمم وشعوب البشر. فالإنسان الذي يفقد إيمانه بالله الخالق لا يعود ينظر

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

إلى الحياة كهبة من الله ذات قيمة غير محدودة، بل يخال بأنها يمكن أن تنتزع من أي بشري فيما إذا كان هذا المسكين غير قادر على الدفاع عن نفسه!

وخلاصة القول علينا بأن نفرّق بين ما وصل إليه العلم الحديث من مخترعات باهرة نستفيد منها في جميع أحوال حياتنا والنظريات الفلسفية التي تحاول تفسير نشوء الكون والوجود البشري بطريقة تتجاهل فيها الله الخالق ومكانه الفريد في هذا الكون. نحن لا نقف موقف العداء من العلم المعاصر ولا ندعو إلى العودة إلى الماضي بشكل أعمى بل ننادي بإيماننا بالله ونرجع إليه تعالى موضوع مجيئنا إلى حيّز الوجود. ونشهد أنه خلق آدم من تراب الأرض وأننا جميعاً من نسل هذا الإنسان الأول وأن قيمتنا اللامحدودة تكمن في أننا خلقنا على صورة الله وشبهه. لم نتطور نحن البشر تلقائياً أو بصورة عفوية من كائنات سفلى، ولم يظهر كوننا هذا من تلقاء ذاته. تبقى نقطة انطلاقنا حياتياً وفكرياً وثقافياً وحضارياً في معتقدنا القلبي بأن الله هو خالق الإنسان ومبدع الكون. وهكذا ننبذ عنا كل نظرية حياتية مهما طلت نفسها بطلاء العلم فيما إذا كانت مبادئها تعارض جوهرياً عقيدة الله وخليقته للكون وخاصة للإنسان. وقانا الله من الصنميات المعاصرة التي أضحت أشد فتكاً بالإنسان من الصنميات القديمة البالية!

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

P.O Box 486, Dracut MA 01826 USA Email: info@arabicbible.com
© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

2

التلوث وحفظ البيئة -1-

إذا تأملنا في موضوع نمو مفردات اللغات البشرية نلاحظ توّاً أنها تتكاثر بنسبة حاجة الناس إلى التعبير عن حالات معيشية جديدة لم تكن معروفة في الماضي. وعندما نبحث في نمو مفردات لغتنا العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، نجد أننا قد لجأنا إلى استعمال تعابير جديدة تناسب ظروفنا الحياتية الحاضرة.

وهكذا نتكلم عن الراديو والتلفزة والفيديو والطائرات النفاثة وأجهزة الرادار. وإذا ما ركّزنا انتباهنا على موضوع الراديو مثلاً نتكلم عن الموجة القصيرة والموجة المتوسطة والموجة الطويلة وطولها الذي يرمز إليه بالأمتار وذبذبتها ويشار إليها بالكيلوهرتز أو الميجاهرتز. ومنذ السبعينات شاع استعمال جهاز الكمبيوتر أي الجهاز الحاسب والذي قد يشار إليه أيضاً بالدماغ الالكتروني وكثرت الوسائط العملية للاستفادة منه وصار يسخّر مثلاً للاستعمال كجهاز لمعالجة الكلمات أي لكتابة الرسائل والمقالات ولحفظها الكترونياً ضمن الجهاز وللاستفادة منها في المستقبل حسب ما تتطلبه الحاجة.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

ولن أسترسل في هذه المقدمة بالكلام عن العديد من الأمور الباهرة التي نستفيد منها. وإذا كنت واقعياً وصادقاً مع نفسي أرى من واجبي أن أذكر بعض الأمور السلبية التي صاحبت هذا التقدم العلمي الباهر الذي شهده العالم ابتداء من عصر الثورة الصناعية. وسأخصص كلماتي الآن عن موضوع التلوث وحفظ البيئة لأنه يتصل اتصالاً وثيقاً بالحضارة العلمية والتقنية التي نعاصرها.

لابد أننا قرأنا في الصحف اليومية أو المجلات الإخبارية الأسبوعية عن تلوث الجو بغازات مضرّة بالصحة وكذلك عن تلوث الأرض وينابيع المياه بما فيها من أنهار وبحيرات كانت في الماضي خالية من المواد الكيميائية الضارة. وإذا كان لدينا جهاز التلفزيون فربما رأينا شريطاً خاصاً يظهر لنا بكل واقعية مقدار التلوث الهائل الذي حصل لهذا النهر أو ذلك الشاطئ البحري. يا ترى كيف نفسّر هذه الظاهرة المقلقة ونحن نفتخر في نفس الوقت بأننا قد وصلنا إلى قمّة التقدم العلمي والتقني؟

قبل كل شيء، علينا الإقرار أن البشرية لم تحسب كلفة التقدم العلمي وتطبيقه في الحياة اليومية. وهكذا يجدر بنا الاعتراف مبدئياً أن لكل تقدّم تقني مكاسبه ومضارّه. لا يجوز لنا كمخلوقات عاقلة بأن ننظر إلى طرف واحد من الواقع المعاش! خذ مثلاً موضوع السيارة. كلما ركبت في سيارة أو قدت سيارتك

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

الخاصة فإنك ترسل إلى الجو غازات مضرة بالصحة. وهكذا يجدر بصانعي السيارات أن يقللوا من عدد وكمية المواد الضارة المنبعثة من الجو. وهذا ممكن كما حدث في السبعينات من هذا القرن عندما ظهر بصورة جلية أن مادة الرصاص التي كانت تمزج بالبترين هي ضارة مت وصلت إلى الجو وعملت مفعولها في الجهاز البشري التنفسي وأثّرت على أدمغة الناس ولاسيما الأطفال. وهذا حدا ببعض بلاد العالم إلى تحريم إضافة الرصاص إلى البترين وإلى تطوير محرّكات السيارات لكي لا تعود تتطلب وجود الرصاص في البترين.

وبما أننا لا نستطيع العيش بدون سيارات أو باصات أو قطارات أو سفن أو طائرات، صار من واجبنا أن "نروّض" هذه المخترعات الحديثة أي أن نستعملها بكل دراية وحكمة. علينا أن ننظر إليها كخادمة لنا في حياتنا وأن لا نسمح لها بأن تتسلط علينا وتستعبدنا. ما أعنيه مثلاً أننا إذا اتكلنا كليّاً على السيارة كواسطة للتنقل و لم نعد نمشي كما كنا نقوم في الماضي، تضحي السيارة مهيمنة كلياً على حياتنا. وهذا ما حدث بالفعل في كثير من البلاد الصناعية حيث لا نجد الناس يسيرون على أقدامهم ولو كانت المسافة المقطوعة لا تزيد عن خمسمائة متر!

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

وينتج عن هذا النمط الغريب للحياة المعاصرة أننا نزيد من مشكلة تلوث الجو وكذلك نكثر من العوامل التي تضعفنا صحيّاً. فالسير على الأقدام هو أحسن نوع من الرياضة الجسدية. وكمل كتب أحد الأطباء في مجلة عربية أسبوعية:

"أما ممارسة التمارين الجسدية الإرادية والمنتظمة، أي التي نضيفها إلى نشاطنا الجسدي العادي اليومي، فتفيدنا كثيراً لأنها تمتاز بالحسنات الجمّة:

1_ بالقدرة على صرف الوحدات الحرارية التي نربحها من أكل المواد الدهنية والسكاكر.

2_ وقدرة السيطرة على الكولسترول والسكر في الدم لمنع الحوادث القلبية وانسداد الشرايين.

3_ وقدرة السيطرة على الوزن.

4_ وقدرة السيطرة على ضغط الدم للوقاية من أحداث القلب.

5_ وقدرة السيطرة على التدخين لتوازن الجهاز العصبي".

ذكرنا منذ لحظات أنه من واجبنا النظر إلى كل من ايجابيات وسلبيات المخترعات الحديثة التي صارت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية. فإن قمنا بذلك

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

صار بمقدورنا معالجة المشاكل المتأتية عن هذه المخترعات بطريقة عقلانية وعملية. ولكننا إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من الناحية التاريخية لا بد لنا من الإقرار أن البشرية لم تعط الطرف السلبي من المخترعات الاهتمام الكافي والمطلوب. لماذا تصرفنا بهذه الطريقة العشوائية التي أظهرت نوعاً غريباً من اللامسؤولية في مجابهتنا لتحديات الحضارة التكنولوجية المعاصرة؟

ليس الجواب بعسير فيما إذا اعترفنا بأن النظرة الحياتية الشاملة التي صاحبت التقدم العلمي الباهر في القرنين الماضيين كانت نظرة لا دينية لا تأبه بالله ولا بتعاليم وحيه المقدس. فمتى تخلصنا من إيماننا بالخالق نعود فننظر إلى أرضنا هذه وكأنها ملك لنا نتصرف بها كما نشاء. وهذه الرؤيا الناقصة للحياة البشرية تعد مسؤولة عن التلوث والاضرار بالبيئة الأرضية.س

ولكننا إذا نظرنا إلى الحياة البشرية وكأنها تحت سلطة وهيمنة الله القدير خالق الكون والمعتني بشؤون بني البشر، نبعد إذ ذاك عن أفكارنا وتصوراتنا أية استقلالية مطلقة ونقر باتكاليتنا على الباري الذي يتطلب منا بأن نحترم الأرض وما عليها من هواء وماء ونبات وحيوان وبشر! ومن البديهي أن ما يزرعه الإنسان فإياه يحصد!

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

لا يكفينا أن نقوم بمجهودات هرقلية لتنظيف الجوّ والمياه والتقليل من سلبيات المخترعات المعاصرة. علينا أن نتّخذ أوّل خطوة مصيرية ألا وهي الإقرار التام والاعتراف القلبي بأننا لسنا أصحاب هذه الأرض ولا مالكيها. بل كما تغنّى النبيّ داود في المزمور الرابع والعشرين: للرب الأرض وملؤها، المسكونة وكلّ الساكنين فيها. لأنه على البحار أسّسها وعلى الأنهار ثبّتها. متى قمنا بذلك نكون قد خطونا الخطوة الأولى في مسيرتنا لتنقية البيئة وإيقاف التلوث الهدّام الذي عصف بحياة إنسان القسم الأخير من القرن العشرين!

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

التلوّث وحفظ البيئة -2-

أعود للكلام عن موضوع التلوث وحفظ البيئة لأركّز اهتمامي على التلوث الذي يجري بسبب التدخين وآثاره على صحّة الإنسان. وهذا موضوع حساس للغاية وأرجو ألا يساء فهم قصدي من التطرّق إليه. فأنا شخصيّاً لا أريد أن أنتقد أي بشريّ قد تعوّد على التدخين وكأنني على مرتبة أخلاقيّة عليا. ما أبغي القيام به هو مشاركتي للقرّاء الأعزّاء آخر ما وصل إليه العلم المعاصر بخصوص هذا الموضوع الخطير.

قبل كل شيء أقرّ بأننا لم نكن نعير هذا الموضوع أي اهتمام منذ نحو ربع قرن. ولكنه نظراً للانفجار السكاني وكثرة استهلاك المواد الكيميائية والمحروقات في عالمنا، لاحظ العلماء بروز مشكلة ذات أبعاد هائلة ألا وهي تلوث الجو وينابيع ومجاري المياه بمواد ضارة للصحة البشرية والحيوانية والنباتية. وهكذا أخذ العلماء يدرسون تأثير هذه المادة أو تلك على الحياة وبعد انقضاء مدّة كافية من الزمن أجمع العلماء على أن الكثير من المواد التي يستهلكها الناس هي ضارّة بالصحّة. فبناء على ذلك ونظراً لأهمية البحث في موضوع التلوث آثرت بأن أبحث في تأثير التدخين على حياة الناس. رائدي الوحيد هو الكلام عن هذا الموضوع بكل صراحة وعن قناعة مدعومة من قبل آخر الاكتشافات الطبية والعلمية.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

ونظراً لانتشار عادة التدخين بين الرجال والنساء بكافة أعمارهم قد نخال أن الناس كانوا يدخّنون منذ فجر التاريخ. ولكننا إذا ما تأمّلنا في الأمر مليّاً لا بدّ لنا من الاعتراف بأنّ التدخين هو مظهر حديث نسبياً وأن مادة التبغ لم تكن معروفة في أكثر أنحاء العالم قبل اكتشاف القارة الأمريكية في أواخر القرن الخامس عشر. هذا يعني أنّ البشريّة عاشت بدون التدخين لآلاف من السنين ولذلك لم تجابه هذا الموضوع في أكثر عصور التاريخ.

وكما ذكرنا آنفاً، لم نكن ندري تماماً مدى تأثير التدخين على صحة الناس وذلك لأننا لم نكن مبالين بالموضوع الأوسع ألا وهو موضوع التلوث. كل ما كنا نلمّ به هو أنّ الذين يدخنون يصرفون أموالاً معينة في كل سنة على ما لم يكن ضرورة معيشية. ونحن نعلم بديهياً أننا لا نقدر أن نحيا بدون الأكل والشرب أي شرب السوائل المفيدة كالماء واللبن والعصير. أما التدخين فهو لون من الترف ولذلك كنا ننظر إليه من باب الكماليات. ولكننا ما إن حصلنا على المعلومات المختصّة بالتلوث بصورة عامة وعن تأثير التدخين على صحة الناس بصورة خاصة حتى لم يعد بمقدورنا الوقوف موقف اللامبالاة تجاه هذا النوع الخاص من التلوث. فإن صرنا مقتنعين بضرورة حفظ البيئة بصورة عامة ألا يجدر بنا أن نهتم بأجسادنا وأن نحفظها من التلوث المكثّف الذي يحدث من جراء التدخين؟.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

لقد وصل الأطباء الباحثون في مستشفيات الجامعات في مختلف أنحاء العالم إلى رؤية العلاقة المباشرة بين التدخين ومرض السرطان وخاصة سرطان الرئة. هذا لا يعني أنّ كلّ من يدخن يصاب بسرطان الرئة. بل ما أعنيه أنّ احتمال وقوع المدخّن بمرض سرطان الرئة هو كبير جداً نسبياً. هذه حقيقة علمية ثابتة. وفي السنين الأخيرة أخذت بعض البلاد تشدّد على ضرورة وضع تحذير عن مضار التدخين على علب السجاير وعلى الإعلانات التي تنشر في الصحف والمجلات بخصوص هذا النوع أو ذاك من السجاير.

وعلاوة على وجود علاقة مباشرة بين التدخين ومرض السرطان فإن العلماء والأطباء الباحثين وصلوا إلى الإقرار بوجود علاقة مشابهة بين التدخين وسائر أمراض القلب. وليس لدي الإحصاءات الدقيقة عن عدد ضحايا السرطان الرئوي وأمراض القلب المختلفة في العالم لسنة ما ولست أظن بأنني صرت من المبالغين إن ذكرت بأن عددهم قد وصل إلى الآلاف والآلاف!

وفي المدة الأخيرة أخذ العلماء يتكلمون عن مضار التدخين ليس بالنسبة للمدخن نفسه فقط بل بالنسبة لمن يكونون بمقربة منه! وهكذا صرنا نتكلم عن المضار الثانوية للتدخين. ولذلك برزت عادة فرز الناس في الأماكن العامة كالمطارات والمطاعم بين مدخنين وغير مدخنين في بعض أنحاء العالم!

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

أيها القارئ العزيز، لست أكتب في هذا الموضوع بصورة فوقية ولا أروم بأن أظهر بموقف المنتقد المتطرّف لعادة انتشرت بين الناس بصورة مضطردة لمدة تقارب الخمسة قرون. لكنني أكون خائناً للأمانة التي أعطاني إياها الله إن لم أذكر موضوع التلوث بصورة عامة وأخطار التدخين بصورة خاصة.

ما هو الحل لمشكلتنا هذه؟ لن أجيب على هذا السؤال من النواحي الاقتصادية والضريبية والتجارية بل أقتصر على الناحية الأخلاقية.

فنظراً لحصولنا على معرفة كافية لمضار التدخين على المدخنين وعلى الذين يعيشون في محيطهم الجويّ، نجابه توّاً هذا السؤال المصيري: ما هو موقفي من جسدي ومن صحة جسدي؟ وما هي مسؤوليتي تجاه أقراني بني البشر والذين يعيشون في جوّي؟ أيمكنني الآن أن أنسى أو أتناسى جميع المعلومات والحقائق العلمية التي تشير إلى تأثير هذا النوع الخاص من التلوث على صحتي وصحة الناس من حولي؟

في نهاية المطاف، يتوقّف جوابنا على النظرية الحياتية التي ندين بها. فإن كنا نعتقد بأن الإنسان هو الكائن العاقل الوحيد في كوننا هذا، أي إن كنا لا نؤمن بالله وبهيمنته على كل ما في الوجود وخاصة على حياة البشر، فإننا إذ ذاك قد لا نبلي بصحتنا الجسدية. همّنا الوحيد في الحياة يضحي التمتّع، ولو وقتيّاً، بنوعٍ من

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

الملذّات التي نرجعها إلى التدخين، متذرّعين بأن ذلك يهدّئ نم أعصابنا المتـــوتّرة. لكننا إذا ما أخذنا الإيمان بالخالق بعين الاعتبار واعترفنا بأنّ أجسادنا هبةٌ منه تعالى وأننا مسؤولون عن طريق معاملتنا لأجسادنا وأجساد الذين يعيشون في محيطنا، لا بدّ لنا، إذ ذاك، من مجابهة موضوع التدخين بواقعية وشجاعة أخلاقية.

ما هو موقفك من جسدك؟ أهو لك بصورة مطلقة أم هو أمانة مـــن الله؟ أختم تأمّلي هذا باقتباسي من لمات الوحي الإلهي من رسالة بولس الرســـول الأولى إلى جماعة الإيمان في كورنثوس:

أما تعلمون أنّ جسدكم هو هيكل الروح القدس الذي فيكم، الذي نلتموه من الله وأنكم لستم لأنفسكم لأنكم قد اشتريتم بثمن؟ فمجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله!

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

4

من مظاهر الحياة المعاصرة -1-

كلما حاول المرء أن يخرج نفسه من دائرة القلق المحيطة به، كثرت موجبات قلقه، وسقط في دوّامة التوجّس والخوف، وأصبح فيه من العقد ما تنوء الروح بحمله، فهو محكوم لحاجته، قلق على مصيره، في أرض لا تعرف الثوابت والسير عليها غير مأمون، فهي أسيرة حالتين: إمّا أن تكون رخوة فتحتّم الانزلاق! وإمّا أن تكون وعرة فتتعذّر على الإنسان! تلك هي صيغة الحياة للإنسان وهذه صورتها.

قرأت هذه الكلمات منذ بضعة سنين وكان قد كتبها أحدهم واصفاً حالة الإنسان المعاصر وكثرة مشاكله وتعقّدها. وقد رجعت إلى هذه الكلمات الواقعيّة بعد أن سمعت منذ بضعة أيّام وصفاً لما يسمّى بالغربة أو الاغتراب. ومع أنني كنت قد تطرّقت سابقاً لذكر هذا الموضوع ضمن سلسلة التأملات في الحياة المعاصرة إلا أنني أعود للبحث فيه نظراً لحدّة الأزمة التي يعاني منها إنسان القرن العشرين. ومما ورد في كلام أحدهم عن هذا الموضوع: يحسّ بالغربة حتى في عقر داره —بينه وبين زوجته في بعض الأحيان– إحساس دائم وإحساس إنساني.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

نأتي على ذكر هذه الأمور التمهيديّة لفهم موضوعنا كما يجب:

أولاً: الكلام على الاغتراب في أيامنا لا يعني أنّ الماضي كان كاملاً أو أنّ الأقدمين كانوا يعيشون في فردوس أرضي خالٍ من المعضلات الحياتية.

ثانياً: ليست الغربة الروحية التي نتكلّم عنها مشروطة بكون الإنسان بعيداً عن أهله أو وطنه أو مسقط رأسه. وبكلمة أخرى، نحن لا نتكلّم عن مشكلة جغرافية أو اقتصاديّة.

ثالثاً: يلجأ الناس في كلّ عصر وزمان إلى استعمال تعابير ومفردات جديدة تساعدهم على وصف حياتهم بواقعية وجرأة. ومعنى هذا أننا لا نرفض استعمال كل ما جدّ من كلمات بحجة أنّ آباءنا أو أجدادنا لم يكونوا يتكلّ/ون كما نتكلّم نحن. فمع أننا لاننكر تراثنا أو مديونيتنا لكل ما حصلنا عليه من الأقدمين إلا أن هذا لا يعني بأننا مقيدون للتعبير عن أفكارنا بترديد العبارات القديمة. فكأهل القسم الأخير من القرن العشرين صرنا نعيش ضمن حضارة عالمية وأضحى بنو البشر أقرب إلى بعضهم البعض من أي عصرٍ مضى. ونظراً لكثرة وسائط المواصلات والتواصل فإننا نتأثر فكرياً وحضارياً بما يحدث في مختلف أنحاء العالم.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

رابعاً: وصلنا تعبير الغربة والاغتراب من البلاد الغربية وخاصة من الفلسفة الوجودية. فنحن، كما ألمحت في عديد من المناسبات، لا نحيا منطوين على أنفسنا وبعيدين عن التيارات الفكرية العالمية. وعلاوة على ذلك، يعود احتكاكنا بالغرب في التاريخ الحديث إلى أوائل القرن التاسع عشر والكثيرون منا حصلنا على ثقافة مزدوجة عربية وأجنبية. والمختصر المفيد هو أن الكلام عن الغربة ليس بموضوع نظري أو فلسفي محض بل يصف واقعاً اختبره العديدون.

وبعد هذه المقدمة التمهيدية الطويلة نأتي إلى تحليل مفهوم الغربة والاغتراب. إذا كان الإنسان المعاصر يحس بالغربة حتى في عقر داره وأحياناً بينه وبين زوجته، كيف نعلل هذه الظاهرة؟

لإجابتي على هذا السؤال أتسلّح بنظرة خاطفة لما يمكن تسميته بالتاريخ الحضاري والثقافي الغربي الذي كان شديد الفعالية والتأثير في القرون الثلاثة أو الربعة الماضية. ما أن نقف على التيارات الفكرية التي عصفت بهذا العالم حتى نلاحظ تواً أن نظرة حياتية جديدة قد برزت إلى الوجود ألا وهي النظرة الإلحادية.

أخذ العديدون من فلاسفة الغرب ينادون بعالم خال من أي إيمان بالله أو بالغيبيات، بعالم يدور محوره على الإنسان. وتطورت هذه الفلسفات على مر الزمن وظهرت منها الفلسفة الوجودية الملحدة. دعني أقتبس من كتاب ظهر في

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

أواخر الستينات تحت عنوان: إله الإلحاد المعاصر حيث خصّص الكاتب نصف كتابه القيّم للبحث في الفلسفة الوجودية ذات الصبغة الإلحادية:

ولكن الإلحاد [المعاصر] يتصف بميزة _ وقد تكون الصفة الغالبة على الإلحاد الحديث _ ألا وهي أنه ليس مجرد إنكار لله antheisme بل هو أبعد وأعمق من هذا، [أنه] رفض لله antitheisme ، رفض يعتبره أصحابه شرطاً أساسياً ليوجد الإنسان. ويبدو لنا من تاريخ الفلسفة الحديثة أن الإلحاد بمعنى نفي لله قد استبدل أكثر فأكثر برفض لله دافعه الصميمي هو الإرادة بأن لا يوجد الله.

وقد يتساءل المرء: كيف يمكن للإنسان أن يقرر هكذا وجود الله أو عدم وجوده بفعل إرادة منه؟ لكي نفهم ذلك، يجب أن نعود إلى المنظار الوجودي. ففي هذا المنظار ليس المهم "الجوهر" أي الكائنات بحد ذاتها، بل "الوجود" أي علاقة هذه الكائنات بالإنسان. ليس المهم إذا وجود الله بحد ذاته بل وجوده بالنسبة لي.

ونتج عن هذا الغزو الهائل للعالم الفكري المعاصر من قبل الوجودية الإلحادية أن الإنسان المعاصر المتأثر بها فقد معالم الحياة التي كان يحياها آباؤه وأجداده وصار يشعر بالغربة القاتلة إلا إذا عوّض عن خسرانه بتأليهه لأحد أبعاد الوجود. وفي نهاية المطاف لا تنفع هذه المحاولة الهرقلية الإنسان القلق بل يزداد

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

شعور الغربة في حياته التي خلا جوّها من الإيمان الحي بالله الخالق لكل ما في الوجود والمعتني بجميع مخلوقاته ومخلّص جميع الذين يقبلون خلاصه.

وإذا ما تساءلنا: ما هو إله الوجودية الإلحادية؟ جوابنا هو: الحريّة. أعود للاقتباس من كتاب: إله الإلحاد المعاصر.

هكذا فحرية الإنسان [تضحي] المرجع الوحيد لكل شيء. لم يعد للإنسان نموذج إلهي يعود إليه في تقييم أموره وفي تحقيق ذاته، إنما صار عليه أن "يخترع" ذاته والقيم، وهكذا بقبوله تلك العزلة يبلغ إلى ملء قامته كإنسان ويحافظ على أثمن ما لديه، على تلك الحرية التي هي مرادفة لوجوده.

أمن العجب إذن أن يشعر إنسان اليوم بالغربة؟

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

5

من مظاهر الحياة المعاصرة -2-

ذكرنا في بحثنا السابق أن الإنسان المعاصر يشكو من الغربة الروحيـــة أو الاغتراب حتى ولو أنه لم يترك عقر دياره. وذكرنا أيضاً أن الذي ساهم في إنمـــاء الشعور بالغربة الروحية هو انتشار لفلسفة الوجودية الإلحادية بين الكـــثيرين مـــن الناس ولاسيما في السنين التي تلت الحرب العالمية الثانية أي منذ أواســـط القـــرن العشرين. وكذلك اقتبسنا من كتاب قيّم بعنان إله الإلحاد المعاصر حيـــث ذكـــر المؤلف أن منكري الله ألّهوا الحرية المجرّدة من كل مفهوم ديني. أعود للاقتباس من بعض فقرات التحليل الوارد في الكتاب المذكور:

ولكن ما هي تلك الحرية التي [تجعل فيها الوجودية] كل كرامة الإنسان؟ إنها مجرد فراغ ظهر في ملء الكون. إنها "عدم" إنها غير موجودة ولكنها مجرّد قـــوة نفي ورفض، بها ينفصل الإنسان عن أوضاعه ليتجاوزها. ولكن يتجاوزها إلى أين وبالرجوع إلى أية مقاييس؟ ليس للحرية مقاييس وليس لها ما يستقطبها. إنها لذاتها المقياس والمرجع والهدف الوحيد. تظهر يوماً إلى حيز الوجود ثم تتلاشـــى كليّـــاً بالموت دون أن يكون لوجودها أو تلاشيها من معنى.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

وكما كتب أحد الوجوديين الملحدين:

كل حي يولد مبرّر ويستمر عن ضعف ويموت صدفة.

نلاحظ في هذه الكلمات والتعابير الفلسفية ليس فقط انكاراً لله أي لوجوده بل محاولة هرقلية للتخلص من أي تفكير أو تصوّر ديني للكون والعالم وللوجود ولاسيما الوجود البشري. هذه الرغبة اللادينية الجامحة هي التي دفعت بالعديدين من معاصرينا لاعتناق الوجودية لأنها تعطيهم ـ ولو آنياً ـ الإطار الفلسفي للتعبير عن مقاومتهم للفكر الديني. وكما ألمحنا في أكثر من مناسبة في سلسلة التأملات، لا يستطيع الإنسان، مهما حاول أو جدّ، أن يحيا بدون إيمان بمطلق أو بمرجع أعلى.

وما أن ينكر الإنسان الله الخالق حتى يقيم لنفسه صنماً يجسّم بواسطته أحد أبعاد الوجود. فهو قد يضفي صفة الألوهية على المادة أو على مفهومه لمعنى الحرية، ولكنه في الحقيقة يكون قد قام بذلك وهدفه الشعوري أو اللاشعوري هو محاربة الله والتخلص من فكرة مسؤولية الإنسان تجاه ربّه وباريه. نلاحظ وجود هذه الظاهرة الإلحادية المعاصرة ليس في المدارس الفلسفية فحسب بل ضمن العديد من المنتوجات الأدبية والسينمائية. يحاول الإنسان المعاصر والمتحرر من كل فكر ديني موروث، بناء عالم جديد وفردوس أرضي باهر، ولكنه ويا للأسف الشديد لم

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

ينجح في قرننا هذا إلا في إقامة أبشع وأفظع مظاهر اللانسانية من تشريد المساكين من أوطانهم والتنكيل بهم وحجزهم في معسكرات الاعتقال والإبادة الجماعية.

أعود من جديد للاقتباس من كتاب: إله الإلحاد المعاصر عن الحرية المزعومة التي جاءت بها الوجودية الإلحادية:

إن المفهوم [الوجودي الإلحادي] للحرية يجعل منها المرجع الوحيد للإنسان، فلا أصل تستند إليه ولا غاية تتجه نحوها، إنما تخرج من لا شيء وتذهب إلى لا شيء. وبذلك تفقد تلك الحرية كل معنى، ويفقد الإنسان معها معناه، فيصبح، وهو الذي [أرادته الوجودية] موجوداً برفض الله، غير موجود بالحقيقة لأن وجوده لا طائل له ولا هدف. وبذلك تكون تلك الحرية قيداً على الإنسان لأنها أغلقت عليه في عزلة مميتة وحصرته في عدمه ولا معناه.

واستطرد الكاتب المحلل والمنتقد للفلسفة الوجودية المعاصرة قائلاً:

لا حرية حقّة إذا كان الإنسان أسير اللامعنى. كيف نسمّي حرّاً ذلك الإنسان الضائع، المبعثر، الذي يحيا دون أن يدرك للحياة معنى؟ إن إنساناً كهذا تائه في صحراء، وهل يعقل أن نسمّي التيه في الصحراء حريّة؟

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

وقد أدى انتشار هذه الأفكار في عصرنا هذا بالعديدين من المتأثرين بها إلى اختبار ما يسمونه بالغربة الروحية. فإن كانت الحياة بدون معنى وإن كانت الحرية التي نادى بها الوجوديون الملحدون حرية جوفاء لأنها ليست أكثر من التيه في صحاري اللامعنى، لم يبق لنا سوى البكاء والعويل.

لكننا كمؤمنين بالله الذي لم يكتف بخلقه للكون بل كشف عن ذاته منذ البدء في كلامه مع بني البشر بواسطة أنبيائه ورسله، نرفض تعاليم الإلحاد المعاصر مهما ظهرت برّاقة وخلابة. ونعلن بكل صراحة أنه لا يجوز للإنسان بأن ينطوي على نفسه ويندب سوء حظه ويطلي صورة قاتمة للوجود البشري. الله هو منذ الأزل وإلى الأبد سيد التاريخ ومسيّره. وفي ملء الزمن أي في الوقت المحدد من قبل حكمته الفائقة، قام الله بعمل خلاصي وانقاذي حاسم لمصلحة البشرية جمعاء في شخص السيد المسيح. وفد المسيح عالمنا وعاش حياة طاهرة ومات للتكفير عن خطايانا وقام من بين الأموات في اليوم الثالث ليعطينا الغلبة على الشر وليهبنا الحياة الأبدية.

أمامنا نحن أهل السنين الأخيرة من القرن العشرين طريق الله حيث نجد المعنى والهدف والخلاص، وطريق الإلحاد المعاصر الذي نهايته الموت الروحي. ساعدنا القدير لننجو من فخاخ الصنميات التي تحدق بنا من كل حدب وصوب

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

ضمن الحضارة العلمية المعاصرة ولنسير على طريقه المستقيم، فننجو من العـــذاب المصاحب للغربة الروحية القاتلة.

P.O Box 486, Dracut MA 01826 USA Email: info@arabicbible.com
© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

6

أخلاقيات الاقتصاد

مما لا ريب فيه أن عالمنا اليوم أصبح مترابطاً ومتشابكاً أكثر من أي وقت مضى. فما ينتج في مكان ما بكثرة يحتاج إليه الآخرون في أماكن أخرى من عالمنا المتصاغر. ومن أهم مظاهر الحياة المعاصرة هو الدور الفعال الذي يلعبه الاقتصاد. ليس هناك من بشري إلا ويجد حياته مرتبطة بالاقتصاد. فموضوعنا هذا ليس مقتصراً على الأخصائيين أو أساتذة الجامعات بل يهم كل إنسان يحتاج إلى قوت وكساء ومكان يعيش فيه ويدعوه بيته أو شقته.

ولن أتطرق للبحث في موضوع الاقتصاد وكأنني خبير في مختلف النظريات والفلسفات الاقتصادية. ولن أكتب عن موضوعنا هذا مقتصراً على الاقتصاد بمفرده لأن هذا ليس من اختصاصي. بل ما سأبحث فيه هو موضوع أخلاقيات الاقتصاد.

وقد ينبري أحدهم قائلاً لي: لما الربط بين الاقتصاد والأخلاقيات؟ ما هي العلاقة بين عناصر الاقتصاد كالصناعة والتجارة والزراعة والبيع والشراء، ما علاقة هذه الأمور بالأخلاق والأخلاقيات؟ جوابي هو: أنا لا أستطيع أن أعزل هذه

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

الأمور الحياتية الهامة عن الإنسان. كيف يجوز لي أن أبحث غي هكذا مواضيع من وجهة نظر مجرّدة أو بعيدة عن الواقع المعاش؟

صناعة لمن وتجارة مع من؟

هل هناك زراعة بدون مزارع؟

وصناعة بدون مهندس ومبرمج وعامل؟

وهل هناك بيع وشراء بدون تاجر ومستهلك؟

ما هي المبادئ الأساسية التي نؤسس عليها أخلاقيات الاقتصاد؟ يتعلق الجواب بوجهة نظرنا الحياتية للكون وللحياة أي بنظرتنا الشاملة لمعنى الوجود البشري. وبكلمة أخرى، إن كنت أعتقد بأن الإنسان هو كائن وجد من تلقاء ذاته أو نظراً لتطور آلي وأنه ليس هناك من كائن أعلى أو أسمى أو أحكم منه، يصبح منظوري لموضوع الاقتصاد منسجماً مع هذا المعتقد الأساسي. لكنني إن كنت أعتقد من صميم قلبي بأن الله هو الخالق والمبدع لكل ما في الوجود وأنه هو المالك المطلق لجميع خيرات الأرض ومواردها الطبيعية أنظر آنذاك إلى موضوع الاقتصاد من منظور ينسجم مع إيماني الديني.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

لست أسير في ركاب الفلسفات الإلحادية المعاصرة التي ألهت الكثير من النظريات الاقتصادية، بل أعلن بكل صراحة أن نقطة انطلاقي هي كون الله مالك كل ما في الوجود وكون الإنسان _ وهو تاج المخلوقات_ وكيلاً لله على الأرض وأنه ليس عند الله محاباة أو تفرقة بين الإنسان وقرينه الإنسان.

وما أن أضع هذه المبادئ في مقدمة تفكيري حتى أكون قد ربطت بين الاقتصاد والأخلاق وصرت مؤهلاً، وبصورة بسيطة، للكلام عن أخلاقيات الاقتصاد. فمن آمن بملكية الله المطلقة للكون ولأرضنا هذه، يكون قد جعل من ملكية الإنسان لها موضوعاً نسبياً. وأفضل استعمال تعبير وكالة الإنسان على الأرض على استعمال تعبير ملكية الإنسان النسبية على الأرض. ومن البديهي أنه ينتظر من الوكيل أن يكون أميناً عى ما اؤتمن عليه والوكالة التي وهبنا إياها الله هي لمصلحة جميع أفراد البشرية وليس لنخبة مختارة. وبعبارة أخرى، عى بني البشر الذين وهبوا الصلاحية بأن يديروا دفّة الاقتصاد أن يهتموا بخير جميع الذين يعيشون في دائرة حياتهم. لا مجال هناك للنفعية أو الأنانية أو أي موقف يحرم أقراني بني البشر مما وهبنا الله لحياتنا الأرضية.

وعلاوة على ضرورة معاملة الناس بالمساواة وعدم حرمانهم المواهب التي جعلها الله لجميع مخلوقاته ولاسيما لبني البشر، يجدر بنا ونحن نبحث في أخلاقيات

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

الاقتصاد أن نفكر بنوعية الأساليب المستعملة في مختلف النواحي الاقتصادية وتأثيرها الحاضر والمستقبلي على الحياة البشرية.

مثلاً هناك العديد من الاكتشافات العلمية التي تطبق في الزراعة والتي ظهرت، بعد استعمالها لمدة كافية، أنها مضرّة بصحة الإنسان بالرغم من أنها تعمل على تكثير المحصول الزراعي. وما أن نتحقق من مضار هكذا مواد حتى يتوجب علينا الامتناع عن استعمالها. نعم هناك أخلاقيات للاقتصاد!

وكذلك أصبح العديدون من علماء الطبيعة وحفظ البيئة يخافون من مغبة تدمير الغابات الكبيرة في المناطق الاستوائية لأنها كانت، منذ فجر التاريخ، تلعب دوراً هاماً في تلطيف مناخ الكرة الرضية بأسرها. فمع أنه هناك بعض الفوائد من تكثير المساحات المكرسة للزراعة في هكذا مناطق من العالم إلا أنه لا بد من التأمل في مصير العالم بأسره فيما إذا كان تدمير الغابات الاستوائية سيزيد من انتشار الجفاف في بقية أنحاء الأرض وانقلاب الأحوال المناخية والطقسية رأساً على عقب.

أتيت على ذكر هذه الأمور لأظهر حتمية الربط بين الاقتصاد المعاصر وأخلاقيات يكون طابعها مسؤولاً عن صحة ورفاهية البشرية بأسرها. ولكننا إن قبلنا فلسفة الطلاق بين الاقتصاد والخلاق فإننا نجلب على عالمنا وعلى أولادنا وأحفادنا كوارث لم يعرف لها مثيل منذ فجر التاريخ.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

وخلاصة القول: إن موضوع الاقتصاد هام للغاية وربطه بالأخلاقيات واجب فيما إذا كنا مخلصين في إيماننا بالله. يتوق عالمنا المعذّب إلى بزوغ فجر يوم جديد تعم فيه المساواة بين الجميع وتختفي فيه تناقضات الحياة المعاصرة. ولن يأتي ذلك اليوم إلا إذا اعترفنا بابتعادنا عن الله بارينا ورجعنا إليه تائبين وسائرين على طريقه المستقيم.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

7

أخلاقيات التكنولوجيا.

من أهمّ مظاهر القرن العشرين هو تطبيق العلوم الطبيعيّة في جميع نواحي الحياة البشريّة. وليس من إنسان مفكّر ينكر مدى تأثير التكنولوجيا أي تطبيق المبادئ العلميّة وتسخيرها للقيام بوظائف تسهّل حياة الإنسان وتمكّنه من التغلّب على العقبات التي كانت تعترض سبيله وتمنعه من تحقيق العديد من أحلامه. مثلاً لم يعرف أجدادنا الذين عاشوا قبل نحو مئة سنة أنّ الإنسان سيستطيع أن يتكلّم مع قرينه الإنسان عبر القارات بواسطة التلفون أو الراديو أو أنه سيتمكن من الطيران بسرعة الصوت أو الغوص تحت مياه البحار أو المحيطات! تمّت هذه الأمور الباهرة في القرن العشرين. كل شيء في حياتنا المعاصرة محاط بثمار العلوم الطبيعية وبمنتوجات التقنية أو التكنولوجيا.

ومع استفادتنا من التقدم العلمي الباهر وخاصة من تطبيقه في التكنولوجيا إلا أنه يجدر بنا أن نسأل هذا السؤال المصيري: هل تسير أمور العلم على أساس يفوق العلم أو يعلو عليه أم هل تجري أمور العلم على أساس علمي بحت؟ وماذا أقصد بعبارة: أساس علمي بحت؟ وهل هناك أخلاقيات للتكنولوجيا؟

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

وما ورد في الفصل السابق بخصوص الاقتصاد ووجوب ربطه بالأخلاقيات أذكره الآن في مضمار وجوب ربط التكنولوجيا بالأخلاقيات. فالعلم والتقنية ليسا من أجل العلم والتقنية! يجب أن توضع هذه الأمور في خدمة الإنسان ورفاهيته لا أن تستعبده وتجعل منه آلة صمّاء. وها هي بعض الأمثلة التي أوردها لإزالة أي غموض ربما يكون قد طرأ على كلماتي هذه:

كان الإنسان في القديم يستهلك المقدار القليل من الطاقة. فقد لجأ إلى استعمال الطاقة المستقاة من الماء والهواء والنار. لكن الإنسان المعاصر صار يتّكل على الطاقة الكهربائيّة في أكثر نواحي حياته. بدون الكهرباء تختفي الحضارة كما نعرفها الآن. ولكن كيف نولّد الكهرباء؟ إمّا بالاتكال على الطاقة المائيّة أو الفحميّة أو البترولّية أو النوويّة.

لنكتفي بالكلام عن توليد الكهرباء بواسطة الطاقة النوويّة. يجري هذا الأمر في العديد من بلاد العام ومن البديهي أن ازدياد الحاجة إلى الكهرباء يجعل من توليدها نووياً أمراً لا مفرّ منه. ولكن ماذا إن كان منتوج الطاقة النووية الثانوي (أي المواد المشعّة) يشكّل خطراً جسيماً على الناس ليس في أيامنا هذه فقط بل في السنين القادمة؟ كنا نجهل في أواسط هذا القرن علاقة الإشعاع النووي بمرض السرطان. لكننا لم نعد نجهل ذلك الآن. ألا نرى في هذا الحقل العلمي والتقني موضوعاً

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

يتجاوز العلم والتقنية؟ ألا نجابه وجود مشكلة أخلاقية لا يمكن التهرّب منها ونحن نبحث في توليد الكهرباء من الطاقة النوويّة؟

لنذكر مثلاً آخر. يتّكل الإنسان في حياته على البرادات وآلات تكييف الهواء التي تمكّنه من حفظ المواد الغذائية لمدّة طويلة وعلى تلطيف الجوّ المحيط به. ويستعمل في هذه الحالات غازاً نادراً للحصول على النتيجة المبتغاة أي التبريد. لاحظ بعض العلماء الباحثين في مناخ الكرة الأرضية وتقلبات الجوّ وتكاثر الجفاف، وجود علاقة مباشرة بين استعمال هذا الغاز النادر والفجوة التي تكوّنت في طبقة الأوزون المحيطة بأرضنا والتي تمنع الإشعاعات الضارّة الآتية إلينا من الشمس من الوصول إلى سطح الأرض.

وقد يقول قائل: ما نجابهه هو مشكلة تقنية. وأنا أسايرك على رأيك ولكنني أزيد قائلاً: نعم تجابهنا مشكلة تكنولوجية ذات أبعاد هائلة ولكنها ليست تكنولوجية بحتة. هناك أيضاً موضوع الأخلاقيات التي يجب أن تصاحب العلوم والتكنولوجيا. فنحن ما إن نكتشف وجود خطر على صحة الإنسان أو على مستقبل البشرية جمعاء ينبثق عن مصدر تكنولوجي حتى يترتب علينا أن نذكّر العلماء أنّه من واجبهم النظر إلى جميع أعمالهم واختباراتهم من وجهة نظر أخلاقية. لا يجوز لهم أن ينادوا بالطلاق بين العلم والأخلاق.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

وفي النهاية لا بدّ لنا من الإقرار أننا عندما نتكلم عن أخلاقيات التكنولوجيا أو أخلاقيات الاقتصاد علينا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنّ الأخلاقيات ذاتها يجب أن توضع ضمن نطاق يعترف بسلطان الله على كل نواحي الحياة والكون. ليس الإنسان بمالك للدنيا ولا بمسير لأمورها وكأنه سيد العالم المطلق. الإنسان هو وكيل استأمنه الله على جميع موارد ومقدّرات الأرض ليعمل فيها بكل مسؤولية. فإن أساء الإنسان استعمال وكالته يجلب على نفسه وعلى نسله أخطاراً عديدة. فحاجتنا القصوى إذاً أن ننادي بأهمية الاعتراف بالله وبشريعته وبعمله الخلاصي الجبار في المسيح يسوع ولصالح البشرية المعذبة. ومتى قمنا بذلك فإننا نرى العلاقة الوثيقة بين التكنولوجيا والأخلاقيات، لا الأخلاقيات المبنية على فلسفة منكرة لله، بل على أخلاقيات تنبع من الإيمان الحيّ بالله القدير.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

8

أخلاقيّات الطبّ.

لقد بحثنا سابقاً في موضوع أخلاقيات الاقتصاد والتكنولوجيا. وقمنا بذلك لإظهار أهميّة الربط بين جميع مواضيع الحياة المعاصرة والأخلاق. فإن امتاز عصرنا هذا بمجيء حضارة جديدة طابعها المميّز تطبيق العلوم الطبيعيّة في سائر نواحي الحياة، صار من اللازم أن نشدّد على أهمية الإنسان كفرد خلقه الله وأعطاه كرامة لم يعطها لبقيّة مخلوقاته. ومن قام بدراسة تاريخ البشريّة في القرن العشرين يلاحظ أن التقدّم العلمي الباهر الذي جرى لم يصاحبه تقدّم مماثل في طريقة معاملة الناس لبعضهم البعض. فما أكثر المظالم التي جرت في هذا القرن وما أشدّ وقعها على البشريّة! وهذا ما دفع أحد المفكّرين إلى القول بأن القرن العشرين يعدّ من أقسى القرون التي عرفتها البشريّة منذ فجر التاريخ!

وقد جدّ الإنسان منذ القديم للتغلّب على الأمراض التي تهدّد حياته وظهر الطبّ منذ القرون القديمة. ومن الواجب أن نذكر دين البشريّ' جمعاء لليونان الأقدمين الذين وضعوا أسس علم الطبّ وكذلك لأجدادنا العرب الذين ساهموا مساهمة

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

فعّالة في مضمار العلوم الطبيّة وكانوا حلقة الوصل بين الطب القديم والطبّ المعاصر.

وربما لا نكون مغالين إن قلنا بأنّ الطفرة الكبرى في علم الطبّ حدثت في النصف الثاني من القرن العشرين بعد اكتشاف العديد من الأدوية التي تعالج الأمراض المستعصية وتضع حدّاً للأوبئة التي كانت تفتك بالملايين من الناس في العصور السابقة. مثلاً لقد اختفى مرض الجدريّ بعد أن عمّت عمليّة تلقيح الأطفال ضدّ هذا المرض الخطير في سائر أنحاء العالم. ملم يقتصر التقدّم العلمي على اكتشاف وتحضير العقاقير المفيدة والشافية بل صار بإمكان الجرّاحين المهرة بأن يزرعوا أعضاء سليمة في جسد الإنسان عوضاً عن أعضاء كان قد أتلفها المرض كزرع الكلية أو القلب.

وقد أدّى هذا التقدّم العلمي الباهر الذي جرى في مضمار العلوم الطبيّة إلى ظهور مشاكل وتحدّيات أخلاقيّة عديدة. فنحن إذ نفكّر في موضوع الطبّ الحديث وتأثيره على الحياة البشريّة لا بدّ لنا من أن نركّ. على وجوب احترام الشخصيّة البشريّة في جميع طرق المعالجات الطبيّة والبحوث التي تجري لاكتشاف أدوية جديدة. وكذلك علينا الاعتراف بأن هنالك حدوداً يجب على الإنسان ألاّ يتخطّاها وهو يقوم بتجاربه العلميّة/ الطبيّة. ليس الإنسان عبارة عن أنسجة وأوعية

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

دم وكتل عضليّة، الخ. الإنسان هو قبل كلّ شيء كائن سامٍ خلقه الله على صورته وشبهه، كما ورد في موضوع خلق الإنسان في توراة موسى. الإنسان هو تاج الخليقة وقد أعلن الله كرامته بكل وضوح منذ فجر التاريخ. إذن، لا يجوز لأي بشري أن يعبث بحياة أقرانه بني البشر أو أن ينظر إليهم وكأنهم ليسوا أعلى مرتبة من الحيوانات.

وسنبحث الآن بكل صراحة في موضوع حساس للغاية ألا وهو موضوع الإجهاض. يعمد العديدون من معاصرينا على معالجة موضوع الانفجار السكّاني باللجوء إلى هذه الطريقة اللاأخلاقية لتحديد النسل. الملايين من الأجنّة البشرية لا ترى نور الحياة لأنّه صار بالإمكان القيام بالإجهاض بطرق سهلة نسبيّاً. لكنه لا يجوز لنا أن ننظر إلى هذا الأمر الخطير وكأنّ الجنين البشريّ قيمته كالصفر. هناك موضوع أخلاقي هام يجابهه كلّ طبيب وكلّ ممرّضة وكل قابلة قانونيّة: ما هو موقفي من الحياة البشريّة؟ وما هي قيمة الحياة؟ وهل هناك حقوق لبني البشر حتى قبل أن يولدوا؟

وفي نهاية المطاف يرتبط جوابنا على هكذا أسئلة ليس فقط بالأخلاقيات التي ندين بها بل بوجهة نظرنا الشاملة والكاملة للحياة. من وضع قيمة الحياة البشريّة، الإنسان أم الله؟ وإن كان الله قد علّمنا في وحيه المقدّس بأنّ قيمة الحياة البشريّة هي

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

لا نهائيّة، فمن له الصلاحية بأن يصدر حكم الإعدام على بعض الأجنة البشرية وذنبها الوحيد أنّها لم تكمّل مسيرتها الطبيعيّة في بطون أمّهاتها؟

وهناك مثل آخر أورده لأظهر بشاعة استغلال اكتشافات طبية حديثة بطرق لا أخلاقية ولا شرعيّة. صار بإمكان الطبّ المعاصر أن يكتشف جنس الجنين قبل ولادته، أهو ذكر أم أنثى. وقد قرأت عن البعض الذين يلجؤون إلى هذه الطريقة الطبية لمعرفة جنس الجنين ولطلب الإجهاض فيما إذا كان الجنين أنثى! يا لهول هذا القرار ويا لكبر وفداحة الجريمة المرتكبة ضدّ بعض البنات!

وكثر الحديث في أيامنا عن أهميّة ما يسمّى بالجينات أي تلك الجزيئات الصغيرة التي توجد ضمن كلّ جسد بشري والتي يرثها عن آبائه وأجداده والتي تتحكّم بمختلف نواحي حياته. صار بالإمكان إحداث بعض التغييرات في تكوين هذه الجينات البشرية. ولست أودّ أن أظهر بمظهر المعترض على هكذا أبحاث طبية ولكنه من واجبنا أن نبحث في أخلاقيات كلّ تغيير قبل أن يتمّ هذا التغيير. وبعبارة أخرى، لا يجوز النظر إلى هكذا أمور من وجهة نظر علميّة/ طبيّة بحتة. ليس الإنسان كالحيوان لتجرى عليه اختبارات مجهولة ولا يجوز المجازفة بحياته.

هناك إذن عاقة وثيقة بين علم الطبّ والصيدلة والأخلاقيات. وفي عصر انتشرت فيه إيديولوجيات إلحاديّة وقلّت فيه قيمة الإنسان، يجدر بنا نحن الذين

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

نعترف من قرارة قلوبنا بالله بارينا وواهب حياتنا الثمينة، يجدر بنا أن ننادي بكل جرأة بوجوب أخذ قيمة الإنسان بعين الاعتبار في جميع أمور الحياة ولاسيما في موضوع الطب المعاصر. نحمد الله ونمجّد اسمه القدوس على كل ما وهبنا إيّاه للتغلّب على الأمراض. وكذلك علينا أن نظهر كلّ الاحترام والامتنان للأطباء والممرّضين والممرضات والصيادلة والباحثين في مختبرات صناعة الأدوية والعقاقير، نشكرهم على تضحياتهم وتفانيهم في سبيل صحّة البشريّة. لكننا نذكّرهم بموضوع الأخلاقيات لكي لا ننسى معنى الحياة البشريّة وقيمتها وقدسيّتها.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

9

أخلاقيّات السينما.

لقد بحثت سابقاً في موضوع علاقة الأخلاقيات ببعض نواحي حياتنا المعاصرة كأخلاقيات الاقتصاد وأخلاقيات التكنولوجيا وأخلاقيات الطبّ. أعالج في هذا الفصل موضوع أخلاقيات السينما.

من البديهي لكل باحث في موضوع السينما وعلاقتها بحياتنا المعاصرة أنّها فن جديد وفد دنيانا على موجة التقدّم العلمي الباهر الذي تمّ منذ أوائل القرن العشرين. فمع أنّ المسرحيّات قد ساعدتنا منذ القرن الماضي على توسيع ثقافتنا وأفق حياتنا الفكريّة والحضاريّة، إلا أنّ السينما أدخلت بعداً جديداً على حياة البشر بتجاوزها لمحدودية المسرحيات ولتمكينها الملايين من تذوّق اختبارات حياتيّة مثيرة حتى ولو كانوا يقطنون قرى نائية قلّما كان يزورها مسرح متحرّك!

وما أذكره في بحثي هذا عن أخلاقيات السينما ينطبق إلى حدّ كبير على أخلاقيات التلفزيون والفيديو الذي يمكننا النظر إليهما كامتداد لفن السينما.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

نظراً لوجود الآلاف من الأفلام السينمائيّة وبلغات ولهجات عديدة فإنّه من المستحيل لنا أن نبحث في موضوعنا هذا إلاّ بطريقة إجماليّة عامّة. فما أذكره هو نتيجة لانطباعات عديدة حصلت عليها لا لأنني من المدمنين على مشاهدة الأفلام السينمائية أو التلفزيونية بل كحصيلة لما أطالعه من مقالات نقديّة أو تحليلية لهذا الفيلم أو ذاك. فنتج عن ذلك أنني كوّنت فكرة عامة لوجود أوجه شبه عديدة ومواقف أخلاقية معينة في مختلف المنتوجات السينمائية تتطلّب البحث والتحليل.

أول ما يلفت أنظارنا بخصوص فنّ السينما هو أنّ فيلماً معيناً يستعرض لنا شريحة من المجتمع البشري في مكان وزمان معينين حيث يصف لنا الواقع المعاش من خلال اختبارات أو معاناة بطل وبطلة الفيلم والأشخاص المحيطة بهما. وغاية مخرج الفيلم أن يساهم في تقوية شعورنا بما يدور في عالمنا من خلال المنتوج السينمائي أي انه لا يود منا بأن نبقى مجرّد مشاهدين للفيلم بل أن نشاركه في تحليله لمتناقضات ومشاكل عالمنا.

السينما هي فن كبقية الفنون والدرس الأولي الذي يلقّننا إياه أصحاب الفنّ هو أنّهم لا يودّون بأن يتحوّلوا إلى وعّاظ أو دعاة. العمل السينمائي والإنتاج السينمائي وكل ما له علاقة بالسينما يأتي تحت باب الفنّ لا أكثر ولا أقلّ! لم أقتبس هذه الكلمات من مقال ما ولا من كتاب بحث في فن السينما، بل هو

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

تعبيري الصادق والأمين لانطباعات قوية حصلت عليها من جراء بحثي ومطالعـــاتي بخصوص هذا الموضوع. ما ذكرته إذن كان معبّراً عن محاولتي الخاصة لتلخيص هذه الانطباعات. السينما فن من الفنون الجميلة وهي لذلك لا تعظ ولا تعطي دروســاً في الأخلاق. هذا هو لسان حال صانعي الأفلام السينمائية.

لكنني ما إن أشرع في تحليل بعض الأفلام التي تشاهد في دور السينما في مختلف أنحاء العالم حتى ألاحظ أنّ العديد منها لا تكتفي بأن تسرد قصّة معيّنة بل لها غاية خاصة وكأنّ المخرج أراد أن يلقننا درساً ما في موضوع حياتي هام. وكثيراً ما ترد بعض التعابير التي تظهر في مقالات صحفية عن فيلم ما بأن المخرج هو ملتزم بمعنى أنه يدين بنظرة حياتية خاصة وأن له هدفاً معيناً في إخراج فيلمه أكثر مـــن مـــلء جيوبه بالنقود!

السينما فن، هذا صحيح، والفنانون والفنانات الباهرون هم الذين ينجحون في هذا المضمار ويصبحون من أبطال وبطلات الشاشة البيضاء. لكن السينما أكثر من فن. تلعب السينما المعاصرة دوراً قيادياً في حياة الناس ولو كان ذلك بـــصورة لا شعورية أو تحت شعورية. ومع أنها لا تلعب دور الواعظ بصورة مباشرة إلا أنهـــا تتطرّق إلى العديد من مواضيع الحياة وتدلي برأيها في كيفية تنظيم الحياة بما في ذلك الحياة الأخلاقية.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

فالذين يقولون بأن السينما هي فن لا أكثر ولا أقلّ ويريدون منا أن نقبل ذلك وبدون فحص أو تمحيص ينسون أو يتناسون بأن الحياة البشرية لا تعرف الحياد فيما يتعلّق بالأخلاق والأخلاقيات. ومهما اختلف الناس في معتقداتهم الدينية، فإنهم يتفقون على أن هناك أموراً محلّلة وأموراً محرّمة. الأخلاقيات تبحث في هذه المواضيع الأخلاقية الهامّة وتلقي ضوءاً على كيفية تنظيم مسيرة الحياة البشريّة.

ومما يؤلمنا في كثير من الأحيان أنّ بعض الأفلام السينمائية تلقّن المشاهدين ضرباً من الأخلاقيات هي في نهاية المطاف لا أخلاقيّة! وما أعنيه أنّ المقدّسات تداس تحت الأقدام وأبطال وبطلات الأفلام يسيرون على نمط حياتي طابعه العبثية والإباحيّة وكأنّه لم يعد في عالمنا خير أو شرّ، حلال أو حرام.

والكثيرون من معاصرينا، ولاسيما من أعضاء الجيل الناشئ، يكوّنون فكرة خاطئة عن الحياة عندما يشاهدون أفلاماً لا أخلاقيّة حيث يمجّد فيها العنف والجنس ومواقف حياتية لا إنسانيّة. هكذا أفلام لا يمكن أن يقال عنها بأنها مجرّد عرض أو استعراض للفن السينمائي، إنها تعظ وتنادي بنوع جديد من الطراز الحياتي أو من السلوك، وتظهر عدم اكتراثها لأية مبادئ سماوية وفدت دنيانا نظراً لاهتمام الله بنا ومن أجل خيرنا الزمني والأبدي.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

لست أنوي بواسطة كلماتي هذه بأن أظهر بمظهر المتحجّر أو المتقوقع ضمن نمط حياتي يرجع إلى القرون الوسطى. ولا أريد بأن أفهم على أنني أعادي الفنون الجميلة أو الفنّ السينمائي كفنّ. كلا، لست من الذين ينادون بالرجوع إلى الوراء والعيش في عالم آخر غير عالم القرن العشرين. لكنني كإنسان مسؤول أمام ربي وإلهي، وكمن يؤمن من قرارة قلبه بأن هناك أخلاقيات سليمة مبنية في أسسها على تعاليم الوحي الإلهي، لا أستطيع أن أبقى صامتاً ولا أشهد ضدّ تحوّل العديد من الأفلام المعاصرة إلى دعوات للانحراف الخلقي والاستخفاف بكلّ الأمور الروحية والأخلاقية الثابتة التي لا تتغيّر من زمان إلى آخر ولا من إقليم إلى آخر.

وإذ نعيش وسط عالم غابت فيه الرؤيا السليمة وضعفت فيه المناعة الروحية والأخلاقية، يجدر بنا أن نشدّد على أهمّيّة علاقة السينما بالأخلاقيات. فالعمل السينمائي يجب أن يتمّ ضمن إطار يعترف بوجود الخير والشرّ، الحلال والحرام.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

10

حياد العلم.

أجرى أحد الصحفيين مقابلة تلفزيونية مع عالم يعلّم الفيزياء في جامعة أوروبيّة شهيرة. وتطرّق الصحفيّ إلى عرض عدّة مواضيع هامّة تتعلّق بالأرض والكون ومنشؤهما إلى ما هناك من أمور تهمّ البشريّة في أواخر القرن العشرين وفي القرن الحادي والعشرين. وقرب نهاية الحديث مع هذا العالم الشهير سأله الصحفي قائلاً بما يمكن ترجمته كما يلي: يا أستاذ، هل تؤمن بالله، أي بالله الخالق والمدبّر لأمور الكون؟ كان الجواب: كلا، لست أؤمن بالله!

لا أخفي عليكم أيها القراء الكرام أنني حزنت جدّاً لدى سماعي لهذه الكلمات وخاصة لأن الأستاذ هو ضليع في شؤون علم الفلك والفيزياء ويتمتّع بمكانة مرموقة بين أقرانه العلماء. تأسّفت لكلماته وفي نفس الوقت قلت لنفسي ليس هذا بالعالم المعاصر الوحيد الذي يعلن عن عدم إيمانه بالله، إنه واحد من الكثيرين من أهل اليوم والذين وصلوا إلى قناعة داخلية بأنه ليس هناك إله خالق ومعتني بمخلوقاته يصغي إلى أدعيتهم ويستجيب إلى صلواتهم.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

وإذ أكتب في هذا الموضوع أودّ بأن أؤكّد بأنني لا أضمر أية عداوة لبعض العلماء المتضلّعين في العلوم الطبيعية بل أرغب في لفت أنظار القراء إلى أن موقف بعض العلماء من أمور الله ليس بموقف علميّ. مثلاً عندما يعلن أحد العلماء المعاصرين بأنه لا يؤمن بالله فهذا موضوع يخصّه كفرد صمّم بأن يدين بمبدأ إلحادي. لكنني لا أقبل مطلقاً ادعاءه بأن موقفه الإلحاديّ هو مدعوم بالعلم. عندما يقف عالم ما أمام شاشة التلفزيون أو يدلي برأيه بواسطة المذياع أو في مجلة أسبوعية ويقول بأنه لا يؤمن بالله يكون قد عبّر عن موقف فلسفيّ لا عن مبدأ علمي.

وقبل الاسترسال في الكلام عن هذا الموضوع يتوجب عليّ، كمن أعبّر عن أفكاري بلغتنا العربية، القول إن كلمة علم أو عالم أضحت تعني غير ما كانت تعنيه لأكثر من ألف سنة في تاريخ حضارتنا. فبينما كانت كلمة علم أو عالم تشير إلى حقل الدين إلا أننا بعد تأثرنا بالحضارة الغربية منذ أوائل القرن التاسع عشر، صرنا نستعمل كلمتي علم وعالم في كثير من الأحيان حسب المفهوم الأجنبي لهاتين الكلمتين. وهذا المفهوم يحصر معنى العلم بما يمكن تسميته بالعلوم الطبيعيّة فصارت كلمة عالم تشير إلى المتخصّص في مضمار هذه العلوم.

أعود إلى الكلام عن قول العالم الفيزيائي بأنه لا يؤمن بالله. هذا أمر خاص به كفرد وهو مسؤول عن قراره ولا بدّ له من أن يواجه نتيجة قراره في يوم الحساب.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

أترك هذا الموضوع الهام في يد الله القدير والعادل. ما أود أن أشدد عليه في حديثي هذا هو أن الذي يود أن يدعم قراره بعدم الإيمان بالله، من يودّ أن يدعم قراره هذا على أنه قرار علميّ يكون قد قام بقفزة لا منطقيّة ولذلك فإنّها غير مقبولة. فموضوع العلوم الطبيعية هو هذا الكون وما فيه من أمور مادّية حسّيّة ملموسة أو منظورة. والنظريات العلمية تتغير من جيل إلى آخر. مثلاً، كان العلماء في القديم يعتقدون بأن الأرض مسطّحة وأن الشمس كانت تدور حول الأرض. لكن تلك النظريات العلمية القديمة ليست مقبولةً الآن. فنظراً لتقدّم العلوم الفلكيّة والاكتشافات الجغرافيّة في القرون الخمسة الماضية صرنا نعلم بأن الأرض هي كروية الشكل وأنها هي التي تدور حول الشمس.

وكذلك يمكننا الإشارة إلى الذرّة التي كان ينظر إليها كأصغر جزء في المادة ولكننا نعلم الآن بأن الذرة نفسها تتكوّن من جزيئيات صغيرة للغاية تدعى بالالكترونات والبروتونات والنيوترونات. فالنظريات العلمية الطبيعية تتغيّر بسرعة ولاسيما في أيامنا هذه.

وغايتي في سرد بعض الأمثلة المستقاة من العلوم الطبيعية هو أننا لا زلنا نتكيّف في مفهومنا لها حسب الاكتشافات التي تجري ولذلك لا تستطيع القول بأننا وصلنا إلى كبد الحقيقة بخصوص أي موضوع علمي طبيعي. الأسلوب العلمي الطبيعي هو

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

مفيد وجيّد ولكنه لا يطبّق على أمور ما فوق الطبيعة أو ما وراء الطبيعة أي على ما يعرف بالغيبيّات.

ولا بدّ من الإشارة بأنّ المفهوم العلمي المعاصر لا يوجد بمعزل عن المعارف البشرية الأخرى. فالإنسان منذ فجر التاريخ لا يكتفي بالسعي وراء فهم وتفهّم ما يحيط به في عالمه وفي كونه بل إنه يسأل نفسه أسئلة مصيريّة ويحاول تعليل الوجود ومعناه وهدفه ومكانة الإنسان فيه. وندعو هذا الجهد البشريّ لتفهّم ماهية الكون والوجود بالحكمة أو بالفلسفة وهذه كلمة يونانية الأصل وتعني حرفيّاً: محبّة الحكمة.

فإن كان العلم المعاصر جزءاً من المعارف البشريّة وإن كان جزءاً آخر منه هو ما نسمّيه بالفلسفة التي تبحث في ماهية الأمور بما فيها من أمور محسوسة أو غير محسوسة، نخلص إلى القول بأن عقل الإنسان بما في ذلك عقل العالم المعاصر، ليس محايداً إلى درجة أنه لم يتأثّر بالفلسفة المحيطة به. وما أعنيه بكلّ بساطة هو أن العديدين من العلماء المعاصرين قد تأثّروا بالفلسفات المعاصرة المنكرة لله ولكنهم أرجعوا موقفهم اللا إيمانيّ إلى العلم عوضاً عن الإقرار بأنهم أنكروا الله نظراً لموقفهم الفلسفي.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

ومن الجدير بالذكر أن الأسلوب الفلسفي يبدأ دائماً من بديهيات غير قابلة للبرهان. البديهيات هي نظريات مسبقة يدين بها الإنسان نظراً لميله العقلي والوجداني. ومن العسير جداً لأي بشري أن يسبر غور عقل الإنسان الآخر. كل ما يستطيع القيام به هو أن يعي ما يذكره قرينه الإنسان بخصوص إيمانه ومعتقداته. وعندما نأخذ هذا بعين الاعتبار لا يعني أننا مثلاً نصبح مرغمين على قبول تعليل العالم المعاصر الذي يقول بأنه، نظراً لمبادئه العلمية، لا يستطيع الإيمان بالله الخالق والمعتني بمخلوقاته. نرفض هذا التعليل اللا منطقي. العالم الملحد هو ملحد لا بسبب علمه بل نظراً لاعتناقه نظرة حياتية شاملة منكرة لله. وبكلمة مختصرة يعود إلحاده إلى طبيعة فلسفته الإلحادية!

وخلاصة الأمر: ليس هماك من حياد في موضوع العلم المعاصر. ومن يدّعي بأن هكذا حياد موجود يكون قد خدع نفسه. الإنسان كائن واحد وشخصيته واحدة ومتى تخصّص في مضمار العلوم الطبيعية وصار من العلماء لا يكون قد أضحى من جبلة فوق بشرية. لا بد لهكذا إنسان من أن يكون قد كوّن لنفسه نظرة حياتية معيّنة، فلسفيّة كانت أم دينية. فإن كانت نظرته الفلسفية تنفي الله مبدئيّاً فإن ميله الإلحادي يظهر في شهادته بأنه لا يؤمن بالله. لكن إعلانه لمعتقده الإلحادي لا يجوز أن يطلى بطلاء العلم لأنه ليس من اختصاص العلم الكلام عن وجود أو عدم وجود الله. ولكن إن كان العالم مؤمناً بالله، وذلك لأنه كان قد اختبر في صميم

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

حياته عمل الله المنعش والمنقذ، فإن شهادته الإيمانية تكون شهادة عـــالمٍ مـــؤمنٍ، ويقينه المطلق بوجود الله وباتكاليته عليه، لا يمكن إرجاعه إلى حقل العلوم الطبيعية. فالله أسمى وأعلى من أن يبرهن وجوده في مختبر العلوم الطبيعية!.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

11

الشر في حياة الإنسان المعاصر.

لقد ألمحت سابقاً عن حدة مأساوية القرن العشرين. فمع أن البشرية شـــهدت مآسي وفواجع كثيرة منذ فجر التاريخ إلا أننا لا نكون مغالين إن قلنا بأن قرننـــا هذا قد امتاز عمّا مضى لشدة قساوة الإنسان تجاه قرينه الإنسان. هذا كلّه جـــرى في عصر بلغت فيه الدعوة إلى التآخي بين الشعوب والأفراد ما لم تبلغه منذ فجـــر التاريخ. وكما كتب أحد المفكرين: لقد هبطت علاقات الإخاء بـــين الـــشعوب والأفراد إلى حضيض لم تهبط إلى مثله خلال التاريخ.

فبينما ابتدأ قرننا هذا على نغم تفاؤلي قويّ وتعاظمت فيه الآراء والنظريات التي كانت تنادي باقتراب عصر ذهبي يعم فيه السلام والوئام بين شـــعوب الأرض، لم يمض ربعه الأول إلا وأن اندلعت فيه الحرب العالمية الأولى وتلتها ســـنون عديـــدة تعاظمت أثناءها المشاكل الكبرى. ولم تنعم البشرية بالسلام الموعـــود وأخـــذت الدول الكبرى تتقاسم بقية العالم وخضع العديدون من الناس لحكم الأجنبي. وقبل أواسط هذا القرن، اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ومات أثناءها الملايين مـــن الناس. وظهر شعار أثناء تلك الحرب وكان فحواه: حرب واحدة، عـــالم واحـــد

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

وسلام واحد! انتظرنا وفود ذلك اليوم البهيج ولكن ماذا حدث؟ تفاقمت حدة المشاكل وتعاظمت فرأينا العديدين من الناس يشرّدون من ديارهم فيهومون على سطح الأرض!

أورد هذه الأمور لا لأملأ قلوب القراء باليأس والقنوط بل لنبحث معاً في موضوع الإنسان المعاصر والشر. قبل كل شيء علينا أن نقرّ بأن البشرية لم تعرف السلام والوئام منذ فجر التاريخ. فعندما ندرس التاريخ القديم والحديث نأتي على أخبار الحروب والمآسي التي نتجت عنها. ليس الشر بحد ذاته ظاهرة جديدة في حياة الإنسان. لم البحث إذن في موضوع الإنسان المعاصر والشر؟ كما ألمحت سابقاً، مال العديدون من المفكرين منذ أواخر القرن الماضي إلى الكلام عن اقتراب بزوغ شمس عصر جديد تنتصر فيه البشرية على كل ما كان يعكّر صفو حياتها منذ القدم. رسم لنا المفكّرون صورة تفاؤلية خالصة عن العصر الذهبي الذي كان سيعم العالم مرفقين تنبؤاتهم هذه بأفول نجم المعتقدات الدينية التي وصفوها بأنها كانت من رواسب قرون الجهل والانحطاط!

أما الآن وقد وصلنا إلى السنين الأخيرة من القرن العشرين، لا نستطيع أن نجاري أصحاب النظريات الطوباوية أو كما تسمى باللغات الأجنبية بالنظريات اليوتوبية. فلقد ذاق العديدون منا فعلياً وليس نظرياً فقط، نعم لقد اختبرنا شخصياً

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

ضراوة الشر الذي طغى على حياتنا أو على حياة أحبائنا أو أقربائنا أو معارفنا. فلم يعد في مقدورنا قبول أية فكرة أو نظرية تفاؤلية مبنية على الفلسفة المنادية بخيرية الإنسان أي بطيبة عنصره البشري.

كيف نعيّن موقفنا من هذه الظاهرة المقلقة أي ظاهرة تصاعد الشر في أيامنا هذه؟ قبل كل شيء يجدر بنا أن ننبذ جميع الآراء والنظريات الخاطئة عن موضوع الشر ذاته. مثلاً علّم بعض الفلاسفة القدمين بأن الشر كامن في المادة ذاتها أي أن الشر هو في صلبها. المؤمن بالله الخالق ينبذ تلقائياً هذه الفكرة. لم يخلق الله الشر وليست الخليقة بشريرة في نشأتها أو في تكوينها. وذهب آخرون وهم من أتباع هؤلاء الفلاسفة فقالوا بما أن جسد الإنسان هو مادي فإن الشر كامن في طبيعته الجسدية بينما تبقى روحه طاهرة وخيّرة. وهذا المعتقد لا يتناغم مع الإيمان بالله الخالق لأنه تعالى لم يصنعنا متمتعين بطبيعة شريرة أصيلة كامنة في تكويننا الجسدي.

وعلّم الفيلسوف الفرنسي روستو J.J. Rousseau والذي عاش في القرن الثامن عشر بأن الإنسان إذا ما نشأ على فطرة الطبيعة، جاء ذا نفس طيبة بخيرها لا تمازجه شر، وإنما هي الحضارة التي أفسدت عليه طبيعته. وكتب كتابه الشهير وسمّاه L Emile حيث عرض فيه نظريته الفلسفية في قصة خيالية عن تربية صبي

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

بعيداً عن الحضارة ليجيء هذا الفتى نقياً وطاهراً. لكن هذه النظرة الحياتية الرومانسية تتجاهل جذرية الشر وكونه كامناً في قلب الإنسان كما نعرفه. الحضارة أو المدنية في حد ذاتها ليست بشر والشر لا يظهر بين الجماعات فقط بل نراه في حياة الأفراد أيضاً.

وانتشرت في أيامنا هذه الفلسفة المسماة بالوجودية والتي نسبت إلى الوجود ذاته بأنه هو منبع الشر. ومن الناحية العملية قال أحد أقطاب هذه الفلسفة المعاصرة: الجحيم هو الآخرون! وهذا يعني بأن اللائمة توضع دوماً على الآخرين الذين يضحون أعداء للفرد وخاصة لذلك الفرد الذي جعل من مفهومه للحرية صنماً يتعبد له.

ننهي بحثنا هذا بالكلام عمّا نتلقنه من الوحي الإلهي كما ورد في الكتاب المقدس. لقد خلق الله أبوينا آدم وحواء ووضعهما في الجنة وكان كل ما يحيط بهما منسجماً مع حياة الخير والصفاء. لم يستمر أبوينا في السير على طريق الله المستقيم بل ذهبا وراء وساوس إبليس وعصيا على أوامر الله فدخل الشر جسد البشرية وانتقل إلى جميع المنحدرين من الإنسان الأول.

وهكذا يمكننا القول أولاً بأن الشر هو أمر طارئ دخل البشرية من الخارج فهو ليس من جزء التكوين الإنساني. وبعبارة أخرى، ليس للشر وجود

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

مستقل بل أنه أمر طفيلي. وكما علّمنا المفكر الإفريقي الشهير القديس العظيم هو أن الشر ليس بأزلي بل إنه طارئ أتى إلى حيز الوجود بسبب المعصية الأولى.

وينتج عن قولنا بأن الشر هو فساد الخير أي عن تشديدنا على عدم كينونة الشر من أصل الطبيعة البشرية أن الإنسان الواقع في أسر الشر قابل للخلاص منه وذلك فيما إذا حدث تدخل إلهي المصدر في صميم حياته. وهذا بالفعل ما تم في تاريخ الخلاص. سارع الله إلى إخبار كل من آدم وحواء بأنه سيرسل منقذاً ليسحق رأس الشيطان وليدمر الشر الكامن في قلب الإنسان. ويمكننا تلخيص كل أيام ما قبل الميلاد بكلمة واحدة: الموعد أو الوعد، أي وعد الله لتتميم خلاص وفداء البشرية. وفي الوقت المحدد، وفد عالمنا مسيح الله وجابه قوى الشر والظلام وانتصر عليها بموته الفدائي وبقيامته الجبارة. ومع أن ما قام به المسيح المخلص لم يعن اختفاء مظاهر الشر في ما تبقى من التاريخ، إلا أننا نحن الذين آمنا بالمخلص المسيح ننظر بعين الرجاء إلى ذلك اليوم الذي سيعلن فيه الله النصر النهائي والتام على الشر والشيطان وإذ ذاك تبدأ المرحلة الأخيرة والأبدية لملكوت الله.

وإلى أن يأتي ذلك اليوم الأخير، نعيش على أرضنا هذه متشبثين بمواعيد الله وثابتين على الرجاء القوي بأن الكلمة الأخيرة في عالمنا ليست لإبليس ولا

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

لأعوانه من شياطين وبشر، بل تبقى في يد الله القدير المنتصر على الشر والذي يهبنا الغلبة بإيماننا بمن أرسله لإنقاذ العالم من سلطة الشر وطغيان إبليس.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

12

الطريقة العلمية

يمتاز عصرنا هذا عن العصور التي سبقته بكونه عصر العلم. وما أعنيه بهذه العبارة أننا نحيا في زمان كثرت فيه تطبيقات الاكتشافات العلمية في شتى نواحي حياتنا. فمن البديهي أنه كان من المستحيل لنا قبل قرن مضى أن ننصت إلى حديث مذاع من محطة إذاعية تبعد عنا المئات بل ربما الآلاف من الكيلومترات. ولا داع لي أن أذكر أن موضوع الإذاعة هذا لم يكن وارداً في الماضي. وهذا الاختراع العجيب لم يتطور إلى حالته الحاضرة إلا في قرننا هذا. وكما ورد في حديث سابق، علينا أن نتذكر أننا نستعمل كلمة علم وعالم بمعنى يختلف عما كان مألوفاً لأكثر من ألف سنة في تاريخ الحضارة العربية. فبينما كانت هذه الكلمة تشير في الماضي إلى موضوع الدين والمختصين في شؤونه إلا أنها أضحت في أيامنا هذه، وذلك نظراً لتأثرنا بالحضارة الغربية، تعني في أكثر الأحيان المواضيع المتعلقة بالعلوم الطبيعية. ويعرف تطبيق المبادئ العلمية الطبيعية في نواحي الحياة المختلفة بالتكنولوجيا. وهكذا يمكننا تسمية عصرنا هذا بعصر التكنولوجيا.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

آتي الآن إلى ذكر موضوعنا الأساسي وهو الطريقة العلمية. ما أعنيه بهذه العبارة هو الأسلوب المتّبع في الأبحاث أو البحوث العلمية. يبدأ العالم المختص في أحد حقول العلوم الطبيعية بأبحاثه ناظراً إلى المظاهر التي يجدها في العالم الخارجي. وهو يأمل بأن يتعلم من أبحاثه الجارية في حقله العلمي ليستخلص منها مبادئ علمية. ومن ثم يأخذ هذه المبادئ فيطبقها ممتحنا بدقة صحتها في مضمار الحياة العملية. وغايتي الآن هي الكلام في حقل العلم حسب المفهوم المعاصر للعلم. ويمكن تلخيص ما نسميه بالطريقة العلمية أن الباحث في هذا المضمار من المعارف البشرية يستقي معلوماته ويصل إلى مبادئه بالتطلع إلى الخارج، إلى الواقع كما يرى ويلمس. ولا بد للعالم الطبيعي من امتحان ما اكتشفه ضمن تجربة علمية دقيقة قبل أن يستفيد الناس من ثمرة اكتشافه العلمي.

وكل ما وصل إليه إنسان القرن العشرين في حقل الأدوية والمواصلات مثلاً إنما خضع لقوانين الطريقة العلمية. وليس من إنسان عاقل ينادي بتجاهل هذا الأسلوب العلمي. ولكننا لا نستطيع القول بناء على ما نتعلمه من حقل العلوم الطبيعية، أن أسلوبها أو طريقتها للوصول إلى المعرفة الصحيحة هي الطريقة الوحيدة للوصول إلى المعرفة في بقية حقول المعارف البشرية. وبكل صراحة، ليست الطريقة العلمية قابلة للتطبيق في حقل الأمور الدينية. يقول الكثيرون من معاصرينا الذين تأثروا بتعاليم الفلسفات الإلحاديّة بأنهم لا يقرّون بوجود الله لأنهم لم يصلوا إلى

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

الإيمان وهم يسيرون على الطريقة العلمية. وقد يذكر بعض القرّاء أن أحد روّاد الفضاء تشدّق منذ بضعة سنين بأنه عندما كان يجول في مركبته لم يجد أثراً لله! أي إله كان صاحبنا ينشده في جزء صغير جداً من الكون؟ وهل كان ذلك الإله – فيما لو وجده رائد الفضاء – بإله يستحقّ عبادتنا وتمجيدنا وإجلالنا فيما لو كان يُرى بالعين المجرّدة قابعاً في مكان ما من الفضاء؟

ولست أودّ من أي قارئ أو قارئة بأن يسرعا إلى الظنّ بأنني نصبت من نفسي ندّاً للعلم والتكنولوجيا! أحمد الله القدير الذي وهبنا كل هذه الوسائط العلمية التي نستفيد منها في كل يوم وفي مجالات عديدة من حياتنا المعاصرة. تنحصر غايتي في الكلام عن موضوع الطريقة العلمية في التشديد على حصرها ضمن إطار العلوم الطبيعية. الطريقة العلمية تتطلّب الجهد البشريّ الذي يتّجه من العالم/ الباحث إلى العالم الخارجي ومن ثمّ ينبئ هذا العالم الخارجي العالم/ الباحث بمعلومات توضع موضع التنفيذ لاختبار صحتها وقابليتها للتطبيق العمليّ.

لكننا ما إن نأتي إلى أمور الله حتى يجدر بنا أن نقبل بكل خشوع وإيمان طريقته تعالى اسمه. وقد امتاز أسلوب الله منذ البدء في كونه الآخذ بالمبادرة. فكما أن الله لم يستشر أحداً ما عندما خلق الكون والأرض وكل ما فيها من نبات وحيوان وإنسان، هكذا شاء الله بأن يعلمنا عن ذاته وعما يطلبه منا نحن البشر بواسطة

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

الوحي والإلهام. لا يمكننا أن نتخلى عن هذا المبدأ الهام تحت ستار كوننا عائشين في عصر علمي لا يدين إلا بما يدعى بالطريقة العلمية للوصول إلى المعارف الصحيحة ولا يقبل إلا بما يؤكّد وجوده ضمن حقل التجارب العلميّة.

أعيد ما ذكرته سابقاً: إنني لا أنصب من نفسي عدواً للعلم. لكنني بالرغم من جميع الفوائد الجمة التي استفدت منها من جراء تطبيق العلم والتكنولوجيا لا أستطيع أن أقبل الآراء والنظريات التي تجعل من الطريقة العلمية الوسيلة الوحيدة للوصول إلى المعرفة ولاسيما في أمور الله. ولست أظن ولا للحظة واحدة بأن اللوم يقع على العلم بحد ذاته لأنه ليس من اختصاصه الكلام عن أمور الله. أين نجد إذن منبع هذا التفكير الذي يحاول بأن يخضع أمور الدين للطريقة المسماة بالعلمية؟ نجد ذلك في الفلسفة المعاصرة التي أخذت اتجاهاً لا دينياً، بل اتجاهاً إلحادياً في القرون الأربعة الماضية أي منذ ما يسمى بعصر النهضة. وقد زادت حدّة الاتجاه الإلحادي في الفلسفة بصورة خاصة منذ مطلع القرن الماضي ذلك القرن الذي زامن بدء التأثير الغربي على بلاد الشرق.

وإذ وصلنا في هذه الأيام إلى السنين الأخيرة من القرن العشرين وبعد أن رأينا وشاهدنا مغبّة النظريات والإيديولوجيات الإلحاديّة وتأثيرها على الحياة الفكريّة في شتى أنحاء العالم، يجدر بنا أن نتمسّك بأسس الإيمان القويم بالله، ذلك الإيمان الذي

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

يعترف بخصوصية الإيمان الديني المبني على الوحي الإلهي وبكونه مختلفاً كل الاختلاف عن المعرفة التي نحصل عليها في حقول العلوم الطبيعية المختلفة. ونحن لا ننادي برجعية عقيمة ولا بوجوب التقوقع في نمط حياتية غير ملائمة لأيامنا هذه، بل نبقى حريصين على التفريق بين أساليب العلم والطريقة الصحيحة للوصول إلى معرفة الله خالقنا والمعتني بنا ومنقذنا من الشر المحيط بنا. فشرعية الطريقة العلمية تصان عندما نبقي عليها ضمن النطاق العلمي/ الطبيعي. لكننا لن نسمح لها، لمجرد كونها علمية، بأن تتخطى حدودها لتضحي الأسلوب الوحيد للوصول إلى المعرفة. نقول هذا بكل صراحة وإخلاص عندما نتكلم عن أمور الله ومعرفته وعبادته وعن الواجبات المفروضة علينا كمخلوقاته التي منحت امتيازات لم تعط لبقية المخلوقات. وكل تطاول على الدين من قبل العلم المعاصر ليس في نهاية المطاف عملاً علمياً، بل مجهوداً فلسفياً إلحادياً غايته إبعاد الإنسان المعاصر عن الله القدير.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

13

مشكلة الحداثة والعصرنة

من أهم المشكلات التي تواجهنا ونحن نقترب من نهايات القرن العشرين هو موضوع الحداثة والعصرنة. فجميعنا نعلم أننا نحيا في عصر جديد لم يختبره آباؤنا وأجدادنا. هذا هو عصر التكنولوجيا أي تطبيق العلوم الطبيعية في مختلف نواحي الحياة، وحدوث الانفجار السكاني وانتقال العديدين من الناس من الريف إلى المدن وضواحيها. عاش الناس منذ القديم على نمط حياتية ثابتة بينما يختبر في عصرنا هذا كل جيل تغييراً كبيراً في أنماط الحياة. فالمشكلة التي نجابهها في مواجهة الشروط الحياتية الجديدة ندعوها بمشكلة الحداثة أو العصرنة.

وقبل كل شيء أريد أن أشرح ما لا أعنيه عندما أبحث في موضوع الحداثة والعصرنة. فأنا لا أعني أننا نستطيع العودة إلى الوراء ونحيا كما عاش أسلافنا. كانوا يسافرون براً وبحراً بطرق بطيئة نسبياً بينما نحن نسافر بسرعة عندما نستعمل السيارات أو الباصات أو القطارات. وإذا كانت المسافات شاسعة صرنا نسافر بالطائرات. لكنّ مجرد تغيير وسائل المواصلات لا يأتي بنا إلى مجابهة مشاكل

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

مستعصية، فهي تبقى تحديات يمكن التغلب عليها بعد بذل جهد معيّن وبدون المساس بعقائدنا التي نتشبث بها.

وكذلك تتطلب منا الحياة المعاصرة استعمال الكهرباء للإنارة والتشغيل العديد من الآلات المترلية. وهكذا عندما نستعمل الكهرباء كمصدر هام للطاقة لا نعني بأن ذلك صار مشكلة مستعصية. وبكلمة مختصرة، لا تكمن مشكلة العصرنة أو الحداثة في هكذا مواضيع. فجميعنا نتفق على هذا الأمر الهام بأن الطريقة المعيشية للإنسان في تطور مستمر منذ فجر التاريخ وأنه ليس من إنسان عاقل يودّ الرجوع إلى الوراء وإنكار فوائد المبتكرات التي جرت في عالمنا وخاصة في هذا القرن.

ماذا نعني إذن بمشكلة الحداثة والعصرنة؟ وما هي المواضيع التي برزت في أيامنا هذه والتي تتطلب منا تفكيراً سويّاً لنستطيع مجابهتها بطريقة مسؤولة؟ ليس الجواب بعسير إن حصرنا هذه المشكلة في النظرة الحياتية التي عمت العالم في هذا العصر والتي تخفي في طياتها فلسفات إلحادية منكرة لله ولكل ما أوحى به منذ فجر التاريخ.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

كثيراً ما ينسب للعلم، حسب مفهومه المعاصر، آراء ليس لها علاقة بالحقل العلمي بل هي مجرد آراء فلسفية أو مواقف إيديولوجية. فصار من المألوف أن العديدين من معاصرين يبررون موقفهم الإلحادي بادعائهم

أنه علمي. وهم يقصدون بأن الإنسان الذي يتخذ موقفاً علمياً في حياته لا بد له، في نهاية المطاف، من إنكار الله وعلاقته بالإنسان. هكذا موقف لا علاقة له بالعلم، إذ أنه ليس من اختصاص العلم، كما يفهم في هذا الأيام، أن يجعل من نفسه حكماً في أمور الله القدير.

نعود إلى الكلام عن موضوع التحديث والعصرنة. تبرز حدّة المشكلة التي نجابهها اليوم عندما يحاول البعض دمج النظرة الحياتية الإلحادية المنكرة لله ولإتكالية الإنسان عليه، في موضوع التكيف مع مطاليب الحياة المعاصرة. ما أعنيه هو أننا لا نعادي الحداثة أو العصرنة فيما إذا كانت مجرد التأقلم مع هذا العصر بشرط ألا يطلب منا في نفس الوقت أن ندين بمبادئ أساسية هي في جوهرها لا دينية أو إلحادية.

مثلاً لا يخفى علينا أن التقدم الباهر الذي جرى في مضمار العلوم الطبية صار جزءاً لا يتجزأ من طراز حياتنا. نشكر الله ونحمده على جميع الإكتشافات الصيدلية وعلى فائدة العديد من العقاقير التي لم تكن معروفة حتى منذ مدة قصيرة

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

نسبياً. ولقد تأتى من جراء الإكتشافات الطبية المعاصرة عدة أمور لم يجابهها آباؤنا أو أجدادنا. فمن البديهي أن ما لم يواجهوه لم يكن مشكلة بالنسبة إليهم ولذلك لم يتركوا لنا نتاج تفكيرهم بخصوص الموضوع الذي نجابهه نحن. يقول لنا البعض من الباحثين في موضوع الطب والعصرنة أنه لا يجوز لنا أن نستمر في الكلام عن قدسية الحياة البشرية بل علينا أن نغير مفهومنا عنها ناظرين إليها من جهة نفعيتها وكيفيتها. وما يعنون به هو أن الناس كانوا في الماضي ينظرون إلى حياة الإنسان كمخلوق له قيمة لا متناهية. الإنسان هو مخلوق فريد أعطاه الله ما لم يهبه لأي مخلوق آخر. فنظراً لكون الله قد خلق الإنسان جاعلاً إياه تاج المخلوقات وبما أنه كشف عن ذاته منذ فجر التاريخ وأعطى الإنسان وحياً تضمن طرق العبادة الصحيحة المقبولة لديه، يتأتى من هذا المنظور العقائدي أن يعمل الطب كل ما في وسعه للإبقاء على حياة الإنسان مهما كلّف ذلك من مجهود أو مال!

يأتي البعض من الذين لم يعودوا يدينون بهذه النظرة التقليدية لقيمة الحياة البشرية ويقولون بأن متطلبات العصر تحتم علينا أن نعيد النظر في ما كنا نعتقده بخصوص قيمة الإنسان. مثلاً إن قلت فائدة الإنسان لمجتمعه نظراً لمرض عضال قد ألم به، لا ينتظر من المجتمع البشري بأن يمنح هكذا إنسان كل ما يحتاجه من الوسائل الطبية للإبقاء على حياته. نواجه هذه المشكلة نظراً لتقدم العلوم الطبية في أيامنا ولكنه لا يجوز لنا أن نلوم الطب المعاصر وكأنه هو الذي يلح علينا لكي نغير

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

موقفنا من الإنسان. فالذي يضفي قيمة لا محدودة على الشخصية البشرية هو الله خالق الإنسان. فاحترمنا لقدسية الحياة البشرية واستنكارنا لزهق الأرواح البشرية البريئة هو مدعوم من قبل معتقد ديني يعلو فوق جميع النظريات العلمية أو الفلسفية، قديمة كانت أو حديثة أو معاصرة! وما أن نعتنق إيديولوجية مادية إلحادية حتى تتغير وجهة نظرنا بخصوص الإنسان. إذ ليس في مضمون أو في محتويات المعتقد الإلحادي أي مفهوم للإنسان يجعل منه ذا قيمة لانهائية. يضحي الإنسان في منظور الإيديولوجية الإلحادية مجرد كائن ذي قيمة محدودة. وعندما لا يستطيع الإنسان أن "ينفع" مجتمعه تضحي حياته "عبثاً" عليه ومن الجائز التخلص منه فيما إذا رغب في ذلك "المجتمع".

ليست مشكلة الحداثة أو العصرنة إذن في وجوب أو عدم وجوب التكيف مع نمط الحياة المتأثرة بالإكتشافات العلمية. تكمن حدّة المشكلة في الأيديولوجية اللادينية التي تصاحب كثيراً الحياة المعاصرة. فكمؤمنين بالله نقول نعم للحداثة والعصرنة إذا ما فهمتا على أساس سليم. ولكننا نقول كلا، لأية عصرنة تسلبنا في نهاية المطاف من أعز ما لدينا من قيم روحية وأخلاقية نبعت في أصلها من وحي الله القدير. ونحن إن قبلنا الكثير من الآراء الرائجة في عصرنا هذا والتي تنادي بالتحديث والعصرنة بدون أن نفحصها على ضوء الكلمة الإلهية نكون قد سرنا

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

على مترلق يؤدي بنا إلى الدمار. وكما قال السيد المسيح: لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه؟

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

اتبعني

الإنجيل حسب يوحنا 21

من أهم الأسئلة التي تجابهنا في الحياة هي: ما هو هدف الحياة؟ وما معنى الوجود؟ ما أكثر الناس الذين لا يعلمون لماذا وجدوا على الأرض أو لماذا كتب عليهم بأن يتعذبوا ويتألموا. أضحت الحياة المعاصرة فريسة للروتينية المملة وكأن الإنسان صار شبه آلة تدور على نفسها بملل وضجر قاتلين. يا ترى من ينقذنا من هذه الدوامة ومن يحررنا من اللامعنى الذي يحيق بنا من ساعة نهوضنا حتى نومنا؟

ليس للحياة هدف أو معنى فيما إذا ما أخذنا النظرة الحياتية السائدة بين العديدين من معاصرينا ألا وهي الفلسفة المادية الإلحادية. ولكننا إذا تسلحنا بالإيمان القويم الذي يعترف بسيادة الله على التاريخ البشري وقبلنا تعاليم الوحي الإلهي المدونة في الكتاب المقدس، نقدر آنئذ أن نجابه الحياة وصعوباتها المتكاثرة باليقين التام أن الفشل لن يكون نصيبنا بل تضحي حياتنا جزءاً من البرنامج الإلهي للتاريخ.

وبإمكاننا رؤية تطبيق هذا المبدأ الحياتي في اختبارات تلاميذ السيد المسيح في الأيام التي تلت قيامته من بين الأموات. وقد سرد لنا الرسول يوحنا في الفصل

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

الحادي والعشرين من الإنجيل حادثة ظهور المسيح الظافر لبعض تلاميذه عند بحر طبرية أو بحر الجليل في شمالي البلاد المقدسة. وكان تلاميذ المسيح يعيشون في فراغ روحي نظراً لعدم تفهمهم لمعنى الحياة في ضوء قيامة المسيح يسوع. فظهر لهم المسيح وعلمهم درساً هاماً ألا وهو وجوب وضع جميع أعمالنا وبرامجنا الحياتية ضمن إطار ملكوت الله.

وبعد هذا أي بعد ظهور المسيح لتلاميذه في مناسبتين مختلفتين، أظهر يسوع نفسه أيضاً للتلاميذ عند بحر طبرية. وظهر هكذا: كان سمعان وبطرس وتوما الذي يدعى لتوأم ونثنائيل الذي من قانا الجليل وابنا زبدي واثنان آخران من تلاميذه قد اجتمعوا معاً. فقال لهم سمعان بطرس: أنا ذاهب لأصطاد. قالوا له: ونحن أيضاً نذهب معك. فخرجوا وركبوا القارب و لم يمسكوا في تلك الليلة شيئاً. وعند إقبال الصبح وقف يسوع على الشاطئ و لم يعلم التلاميذ أنه يسوع. فقال لهم يسوع: أيها الفتية هل عندكم شيء من سمك؟ أجابوه: لا. فقال لهم: ألقوا الشبكة إلى جانب القارب الأيمن فتجدوا. فألقوها فلم يعودوا يقدرون أن يجذبوها من كثرة السمك. فقال ذلك التلميذ الذي كان يسوع يحبه لبطرس: إنه الرب. فلما سمع سمعان بطرس أنه الرب ائتزر بثوبه لأنه كان عرياناً وألقى نفسه في البحر. وأما التلاميذ الآخرون فجاءوا بالقارب فإنهم لم يكونوا بعيدين عن الشاطئ إلا نحو مئتي ذراع وهم يجرون شبكة السمك.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

ففي الأيام التي سبقت حلول الروح القدس على التلاميذ وعلى الكنيسة المسيحية، كان تلاميذ المسيح يعيشون بدون هدف معين وحتى محاولتهم لصيد السمك باءت بالفشل. فظهر لهم المسيح ليعلمهم بأنه حتى في الأمور الاعتيادية التي تصاحب حياتنا اليومية علينا ألاّ ننظر إليها وكأنها بدون معنى أو قيمة. لكل شيء قيمته ضمن برنامج ملكوت الله. ومن جعل حياته سائرة ضمن إطار الملكوت الإلهي يعلم علم اليقين أنها تكتسب أهمية كبرى لأن أفقها ليس منحصراً بهذه الدنيا الفانية بل يتعداها واصلاً إلى الأبدية. وقد بارك المسيح عمل تلاميذه فجرّوا شبكة مليئة بالسمك وجهز لهم فطوراً شهياً من خبز وسمك مشوي. وبعد أن سد حاجتهم المادية لقنهم درساً لم ينسوه حتى آخر نسمة من حياتهم. قال المسيح لبطرس: اتبعني.

فبعدما أفطروا قال يسوع لسمعان بطرس: يا سمعان بن يوحنا أتحبني أكثر من هؤلاء؟ قال له: نعم يا رب، أنت تعلم أني أحبك. قال له: ارع حملاني! ثم قال له ثانية: يا سمعان بن يوحنا أتحبني؟ قال له: نعم يا رب أنت تعلم أني أحبك. قال له: ارع غنمي! قال له ثالثة: يا سمعان بن يوحنا، أتحبني؟ فاغتمّ بطرس لأنه قال له ثالثة: أتحبني. وقال له: يا رب أنت تعلم كل شيء أنت تعرف أني أحبك. قال له ارع غنمي.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

ردّد المسيح سؤاله لبطرس لأن هذا الأخير كان قد أنكر سيده وربه ثلاث مرات. وبعد أن اعترف بطرس بمحبته الفائقة لمخلصه المسيح ثلاث مرات وبعد أن أخذ الأمر الرباني بأن يرعى حملان وغنم جماعة الإيمان قال له المسيح:

الحق الحق أقول لك: إنك لما كنت شاباً كنت تمنطق نفسك وتمشي حيث تشاء لكنك متى شخت فستمد يديك وآخر يمنطقك ويذهب بك حيث لا تشاء. قال هذا مشيراً إلى أية ميتة كان مزمعاً أن يمجد الله بها. ولما قال هذا قال له اتبعني.

كيف كان بطرس سيتبع المسيح وهو على وشك أن يترك دنيانا عائداً إلى السماء ليجلس عن يمين عرش الله الآب؟ ما معنى كلمة اتبعني؟ عندما ندرس سيرة بطرس وغيره من رسل المسيح نلاحظ أنهم أخذوا بشارة الإنجيل الخلاصية ونشروها في سائر أنحاء الأرض المقدسة وفي بقية البلاد المتوسطية. لم يحجموا عن القيام بذلك الأمر الهام بالرغم من الصعوبات العديدة التي أحاطت بهم. إتباع المسيح يسوع كان يعني القيام بما أناط بهم المسيح من أعمال تبشيرية والعيش بطريقة متجانسة مع رسالة الإنجيل الخلاصية والتحريرية. ونعلم من بقية أسفار العهد الجديد ومن تاريخ الكنيسة المسيحية في العصر الرسولي أن بطرس جاهد في سبيل نشر الدعوة الإنجيلية وأنه لقي حتفه في أيام اضطهاد الطاغية الإمبراطور

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

الروماني نيرون للمسيحيين عندما صلب بطرس في مدينة رومية ومات كشهيد أمين لربه يسوع المسيح ولرسالة الإنجيل الخلاصية.

وعندما وصل الرسول يوحنا إلى نهاية الإنجيل أي الخبر المفرح عن سيرة المسيح يسوع وعما قام به له المجد لإنقاذنا نحن البشر من استعمار الخطية ومن طغيان الشر المسيطر علينا، كتب هذه الكلمات الختامية:

هذا هو التلميذ الذي يشهد بهذه الأشياء وهو الذي كتبها ونعلم أن شهادته حق. وأن أشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع لو أنها كتبت واحدة واحدة لما ظننت أن العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة، آمين.

ونشكر الله ونحمده لأنه ساعدنا على نشر هذه الكتب المبنية على تعاليم الإنجيل حسب يوحنا. وهدفنا كان ولا يزال ألا نكتفي بالوقوف على أهم حوادث سيرة المسيح. يتطلب منا الله بأن نضع ثقتنا القلبية بمن مات عنا وقام في اليوم الثالث لنحصل على غفرانه المجاني. فإن اكتفينا بالاضطلاع على محتويات الإنجيل و لم نعمل بمتطلباته نكون قد حرمنا أنفسنا من الخلاص العظيم الذي أتمه لصالحنا مخلص البشرية الأوحد: يسوع المسيح. وإذ ذاك تبقى حياتنا بدون هدف معين وتضحي فريسة لسائر قوى الشر والظلام وخاصة في أيام السنين الأخيرة من

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.

القرن العشرين. ساعدنا الله جميعاً لنكون من المرحبين بالمسيح يسوع كما كشف عن ذاته في الإنجيل حسب يوحنا، آمين.

© Copyright 1998–2005, All rights reserved.